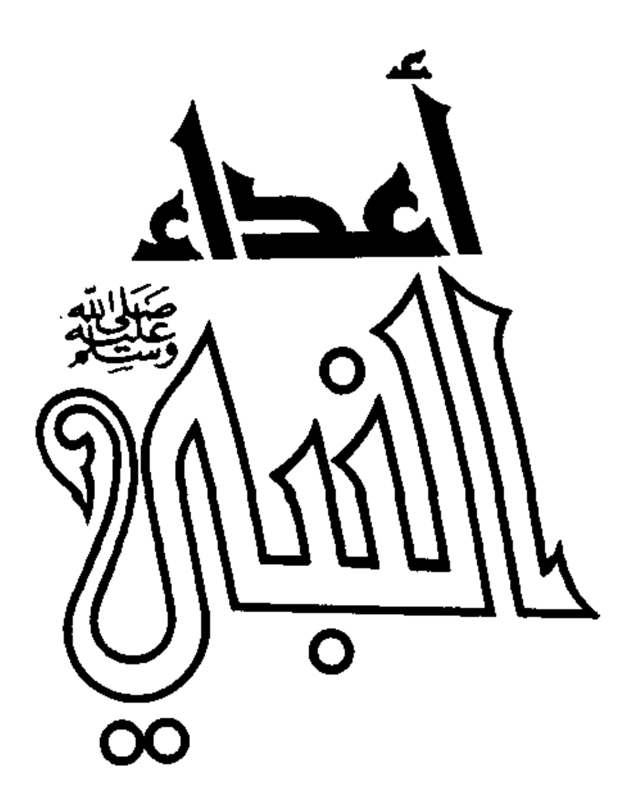
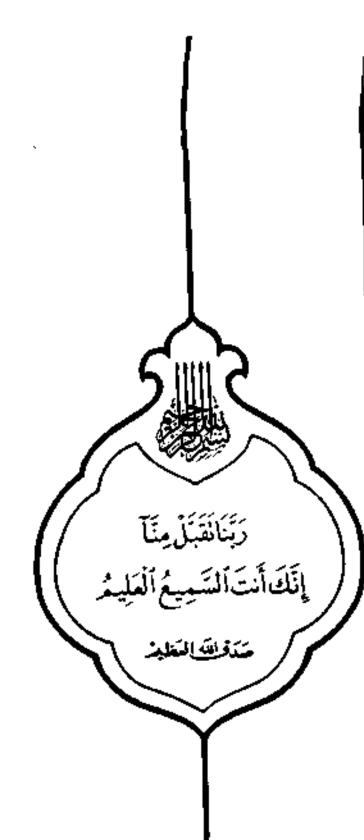


عبد المنعم الهاشمي

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع



الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

مؤسسة الريان
للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٥١٣٦ السجل التجاري في بيروت رقم ٥ / ٧٤٢١

مقدمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على رسوله الكريم محمد بن عبدالله الصادق الأمين. أما بعد..

نبه القرآن إلى أن لكل نبي عدواً من الإنس والجن يغري بعضهم البعض بمجود القول وزخرفه، ولكن الله كفى عباده الصالحين أذاهم وإجرامهم، ولم يقتصر عداء هؤلاء للنبي ﷺ في حياته، بل امتد على مر الأيام والسنين والقرون، حتى أنهم كانوا يأتون بألوان وأشكال آخرها ما كان من صاحب «الآيات الشيطانية» الذي عفَّ القلم أن يكتب عنه، وإنما كان الدافع للكتابة عن أعداء أرادوا ضرب الدعوة في المهد فما استطاعوا. إذن فما بال هؤلاء الذين يتنمرون ويرفعون الرؤوس والنواصي الخاطئة ليقولوا في محمد ﷺ إثماً وافتراءً، ويرشقون الرسالة بسهام الباطل فَتُرَدُّ إلى نحورهم إن شاء الله.

وما أجمل ما تفيض به الآيات عند ذكرها للمجرمين من الأعداء ثم تتبعه بالقول الكريم: ﴿ولَوْشَآءَ رَبُّكَ مَافَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَايَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١٢].

وفي الآية الكريمة الثانية: ﴿ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣١].

أعداء النبي صلى الله عليه وسلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [سورة الأنعام: الآية ١١٢].

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ [سورة الفرقان: الآية ٣١].

مشيئة الله والأسباب

انصرفت مشيئة الله سبحانه عزّ وجل لكي يكون لكل نبي عدواً وأعداء في صُوَر من الإنس والجن، ومشيئة الله سبحانه عزٌ وجل لا رادّ لها فهو سبحانه يقول للشيء كُن فيكون، لكن الأسباب التي بَنى عليها الجاهلون والمنافقون عداءهم تتصف بالوهن والسطحية لو تمعَّنا فيها لوجَدنا أنها قضايا دنيوية مادية ومعنوية أغرقت المتمسكين بها في بحر الظلمات، وإذا استعرضنا نماذج لأسباب عداء دعوة محمد وعداء شخصه العظيم لوجدنا الوهن كل الوهن في الأصول التي بُنيت عليها هذه العداءات.

ولنستعرض بعض هذه النماذج لنقف عندها موقف العجب وقد كانت هكذا:

أولاً: الاختيار:

ظنَّ الناس في الجاهلية أن الرسالة نوع من السلطان والجاه، فمن يحملها على عاتقه صار ملكاً أو عظيم قوم يأمر بالمطلق وينهى بما يريد أن ينهى، لذلك فقد كان اختيار محمد ﷺ للرسالة مفاجأة لهم، فظنهم أنه إذا كان لا بد من رسول يحمل هذه الرسالة السامية فيجب أن يكون من أهل الرياسة في مكة، واتجهت عيونهم وأبصارهم إلى الوليد بن المُغِيرَة الذي أعد نفسه لمجد الرياسة في

مكة فاستقام في سلوكه السطحي على حين ظل فكره متعفناً بالجاهلية وعُرْفها المبني على التعصب واستعباد الإنسان لأخيه الإنسان.

وقال البعض إن لم يكن الوليد بن المغيرة ابن مكة وشيخها، فليكن عظيم قرية أخرى وهي الطائف، فقد كان عُرْوَةُ بن مسعود الثَّقَفِي رئيسها وشيخها بلا منازع بما له من غنى وسلطان.

وقد عَوّلَ الناس في هذا الوقت من الزمن أمر الرسالة إلى جاه مادي وسلطان يحكم بالسيف والفروسية، فالرسالة في نظرهم منصب كبير لا يليق إلا بكبير قوم وعظيم جاه وسلطان.

وقد تصدى القرآن الكريم لهذه النقطة وهي نقطة الاختيار ولأسبابهم الواهنة الهزيلة التي طرحوها كأصول، بنَوا عليها نظريتهم، فقال سبحانه عزَّ وجل في سورة الزخرف: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

هذا قولهم بأفواههم، لكن القرآن الكريم يردّ على جهلهم وقولهم المنكر، فيقول سبحانه عزَّ وجل: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّاۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[2].

لقد وقف القرآن الكريم من هؤلاء موقفاً ساخراً في استفهام

(١) سورة الزخرف: الآية ٣١.
(٢) سورة الزخرف: الآية ٣٢.

يَعْجَبُ منه القارىء المدرك للأمر، فكيف يقسم هؤلاء رحمة ربك[1]، ومحمد ﷺ هو رحمته المهداة إلى كل الناس لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ٨٤].

ويقول عزَّ وجل: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [سورة آل عمران: الآية ١٥٩].

ونعود قليلاً إلى ما جاء عن قولهم في اختيار رجل من القريتين عظيم، فالآية الكريمة تهاجم فكرهم المتخلف وجمودهم وتسخر منهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾.

وتعجب من تدخلهم في شأن من شؤون الواحد الأحد، الفرد الصمد.. ولم يترك القرآن الكريم شيئاً إلا فصَّله تفصيلاً، إذ يقول سبحانه عزَّ وجل في سورة الأنعام: الآية ١٣٤: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾.

ويقول عز وجل في سورة الحج: الآية ٧٥: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾.

ثانياً: هوان الأمر وضياع السلطان:

كان هاجساً يلحّ في نفوس النبلاء من قريش فيبث الخوف والرعب من هوان أمرهم وضياع سلطانهم، الذين تمتعوا به على مر الزمان منذ أسس الجَرْهَميون أصهار إسماعيل عليه السلام هذه القرية

---

(١) والمراد بالرحمة في الآية السابقة: النبوة.

العظيمة التي تُعَدُّ أمّاً لكل القرى على وجه الأرض: إنها مكة المكرمة، ومن مكة ظهر من يقول إن الحارث بن عثمان بن نوفل أحد أشراف قريش ونبلائها جاء إلى محمد ﷺ يقول:

«نحن نعلم أنّك على حق ولكنّا نخاف لو اتبعناك أن يهون أمرنا ونجد من يطاردنا في أرضنا وحلالنا وأرزاقنا».

وقد كان القرآن الكريم لهم بالمرصاد يُفَنِّد آراءهم ويردّ جاهليتهم فنزل قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾(1).

لقد ذكّرهم الله بنعمة الأمن التي أنعم بها عليهم بوجود بيته الحرام في قريتهم العظيمة وسبّب لهم رزقاً، وسَعَة هذا الرزق تمنعهم من الحاجة والسؤال، على الرغم من موقع قريتهم العظيمة التي تحتضنها الجبال من كل جانب، ورغم هذا فقد خافوا على جاه لم يصنعوه، بل إن الله سبحانه عزَّ وجل هو الذي هيأ لهم أسبابه، فكيف يَضِيع الجاه ويأتيهم الهوان، وهم قائمون على عبادة المَلِك القدوس المتكبر سبحانه عزَّ وجل.. ولكن أكثرهم لا يعلمون!!.

ثالثاً: الخوف من سيادة بني عبدالمطلب:

كانت السيادة والسلطان الشغل الشاغل للمجتمع المكي عند بدء الدعوة. لذلك فقد انطبع في أذهان هؤلاء أن محمداً ﷺ في

---

(1) سورة القصص: الآية ٥٧.

طريقه إلى تسليم زعامة قريته العظيمة «مكة» إلى أبناء عمومته من نسل عبدالمطلب بن هاشم، ولما كان هذا الانطباع ماثلاً في أذهانهم فقد استكثروا أن يستأثر بطن قُرَشي واحد بملك وسيادة هي من حق كُل بطون قريش.

وقد نسي هؤلاء أن محمداً ﷺ نبيّ صاحب رسالة، وداعية لا يرغب في ملك وسلطان، وقد بيَّن عليه الصلاة والسلام ذلك عندما بيَّنه في قوله لابنته ذات يوم: يا فاطمة بنت محمد.. لا أغنى عنك من الله شيئاً..

رابعاً: الإسلام ومنهجه العظيم:

إضافة إلى ما أسلفنا فإن ما جاء به الإسلام من تعاليم كان على نقيض من بعض قوانين الجاهلية وأعرافها، فقد جاء الإسلام ليساوي بين الناس فيقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، لا فضل لعربي على عجمي إلّا بالتّقوى.

ففي هذا العصر الذي هو عصر الرسالة وبدء نزول الوحي كان الرق منتشراً في جزيرة العرب، فكان العبد لا يملك حتى قلبه ولا يملك عقله إضافة إلى رقه الجسماني، والتدين بحد ذاته لا يملكه العبد بغير إذن سيده، فهو على دين سيده أينما كان، وكذلك يحب ويكره بأمر سيده. وقد رفض الإسلام هذا المنطق العقيم، فلم يعترف برق القلب والعقل، فإذا كان الرق جسمانياً فإنه لا يجوز أن يكون هناك حَجْر

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٣.

على القلب والعقل، فالرقيق حرّ في دينه وتدينه حُرٌّ فيما يفهم، وذلك ينطلق من مفهوم عام يقول إنّ رق الجسم غير مطلق وغير دائم.

وقد أعطى الإسلام فرصة عظيمة لتحرير الرقيق، مما جعل العبيد يُعطون آذانهم وقلوبهم لما جاء به محمد ﷺ في دعوته، وما دعا به الإسلام من مبادىء وأسس عظيمة جعلت بعضهم يدخل الإسلام، وقد أثار هذا التصرف من العبيد حفيظة سادتهم، فنظروا إلى محمد ﷺ نظرة عَداء بما أثاره لديهم من مشاكل وفِتَن على تعبيرهم وظنهم السيِّء.

ومن الأمور الأُخرى التي أوجدت لدى قريش وأهل مكة تحفظاً على الإسلام ما قرره الإسلام من بعث بعد الموت، وحساب يوم القيامة مما يجعلهم مجردين يوم القيامة من أي نفوذ أو سلطان ظنوا أنه باق معهم ما داموا أحياء، فقد جاءتهم آيات القرآن العظيم تقول: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٣ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ۝٤ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٦ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ۝٨ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١ ﴾[1].

وقد رفض أهل الجاهلية هذا المنطق العظيم، إذ لا بد من ثواب للمحسن وعقاب للمسيء، وأجمال الأمر يكمن في العدل

---

(١) سورة القارعة: الآيات ١ ـ ١١.

وميزانه الذي سَيُنْصَب للناس يوم الموقف العظيم، لقد رفض هؤلاء الناس مبدأ العدل الذي يُحَاسَب على أساسه الإنسان على ما ارتكبه من ذنوب.

لقد أرادوا للدين الجديد صورة بربرية لا يُقَامُ فيها للعدل أساسٌ، وإنما الأساس عندهم هو ما يراه السادة مهما احتمل من ظلم وبهتان على الجانب الآخر، ولكن الإسلام كان قوياً بمبادئه، بَزَغَ نوره قوياً ساطعاً فانهزم أمامه ظلام الجهل والجاهلية رغم ما أقامه من عداء.

مراحل العداء

المرحلة الأولى

كان على بني هاشم وعلى رأسهم عبدالمطلب جد النبي ﷺ كان عليهم حماية النبي ﷺ فهو ابنهم البارّ الأمين الذي شهدت له مكة بالأمانة والصدق العدو فيها قبل الصديق، ولما مات عبدالمطلب أصبح محمد في حماية عمه أبي طالب.

وعلى الرغم من أن أبي طالب لم يكن من أتباع محمد ﷺ، فلم يدخل في دين الله، لكنه ظل حامياً لابن أخيه قائماً دونه، يدفع عنه الأذى، معلناً استعداده للدفاع عنه، وما إن أعلن أبو طالب حمايته لمحمد ﷺ حتى بدأت المرحلة الأولى من مراحل عداء النبي ﷺ.

وجاء إعلان أبو طالب حماية ابن أخيه عندما مشى إليه رجال من أشراف قريش وفي مقدمتهم أبو سفيان بن حرب فقالوا: «يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سبَّ آلهتنا وعاب ديننا وسفَّه أحلامنا وضلَّل آباءنا، فإما أن تكفَّه عنا وإما أن تخلي بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلاف فسنكفيكه».

عند ذلك ردَّهم أبو طالب ردّاً جميلاً، في الوقت الذي مضى فيه محمد يشتد في الدعوة إلى رسالته، وينشط في ضم الناس إليه وهدايتهم.

ولم يلقِ أبو طالب بالاً لحديث هؤلاء، وترك ابن أخيه يفعل ما يشاء دون أن يعترض على شيء، حتى جاءه وفد قريش مرة أُخرى وقد كانوا أكثر حزماً من المرة الأولى فقالوا: «يا أبا طالب، إن لك سنًّا وشرفاً ومنزلة فينا، وقد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعَيْب آلهتنا، حتى تكفَّه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين».

عندئذ أرسل أبو طالب إلى ابن أخيه بعد أن عَظُمَ عليه فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بإسلام ابن أخيه ولا خذلانه، لذلك بعث إلى محمد ﷺ وقصَّ عليه ما كان بينه وبين قريش ثم قال: «فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

ساد صمت قصير بعد هذه الكلمات من أبي طالب لابن أخيه، فأبو طالب يقف الآن بين أمرين كلاهما صعب. الأمر الأول: إنه لا يحب أن يكون بينه وبين قومه عداوة، وفي الوقت نفسه لا يحب أن يخذل ابن أخيه.

أما محمد ﷺ فقد أيقن أن عمه في حَيْرةٍ من أمره، وقد أوشك أن يَضْعُفَ أمام ضغط هؤلاء ـ ولم يبقَ أمامه إلا أن يبين لعمه أن الرسالة التي كُلِّف بها لا تخضع لضغط أو تَرَدُّد، وإنما هي أمر من الله لا بد أن يبلغ مداه مهما كانت النتائج وإنه ـ أي محمد ـ ماضٍ في طريقه، سواء نَصَرهُ عمُّه أو تخلى عنه، وأن تهديد قريش لن يحرك له ساكناً، وإنما شغله الشاغل الآن هو المضي في تبليغ الرسالة، لذلك التفت إلى عمه وقد امتلأتْ نفسه إيماناً وإصراراً لا مردَّ له، وقال

قولته الشهيرة: «يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وقد ترك هذا الموقف العظيم دمعة ترقرقت على خد الرسول ﷺ الذي انصرف مسرعاً من أمام عمه أبي طالب الذي اهتز وجدانه أمام هذا الإصرار العظيم، والوفاء الكبير للمبادىء السامية، فنادى ابن أخيه يطلب منه التوقف لحظة فعاد محمد ووقف أمامه، فلما امتثل أمامه قال له: «اذهبْ يا ابن أخي فقل ما أحببتَ، فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبداً!!».

ولم يترك أشراف قريش الرأي والجهد بعد هذا الموقف الصلب لمحمد ﷺ والذي نقله إليهم أبو طالب، فجعلوا يعصرون عقولهم لإيجاد حل باللين والسياسة، حتى هيئت لهم جاهليتهم طريقاً ظنوا أنه يوصلهم إلى أهدافهم وعلى رأسها التخلص من محمد ﷺ، فقد ذهبوا إلى عمه أبي طالب، وقد صحبوا معهم فتى قرشياً جميلاً وكان يُعرف بينهم بأنه أعظم وأنْهَدُ فتى في قريش على الإطلاق ـ هذا الفتى هو عُمارة بن الوليد بن المغيرة ـ قَدَّموه لأبي طالب وقالوا له: يا أبا طالب خذ عُمارة، فلك عقله ونصره، وأسلم إلينا ابن أخيك لنتخلص منه فهو رجل برجل.

فصاح فيهم أبو طالب ساخراً: بئس ما تسومونني، أتعطونني ابنكم اغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟!!.

ورغم ما حدث فإن قريشاً استمرت في عداء النبي بطريق اللين

والسياسة ومن طرق أخرى، إلا أن أبا طالب أحسَّ بالخطر المقبل تجاه ابن أخيه ورأى في عيون قريش عداءً شديداً لابن أخيه محمد ﷺ، فأحس بتجمعهم وتذمرهم منه ومن ابن أخيه فدعا بني هاشم وبني عبدالمطلب لبحث هذا الأمر وحشد قواهم من أجل الدفاع عن فتاهم الصادق الأمين، فاستجاب البيت الهاشمي جميعه لأبي طالب ووعدوه بالدفاع عن ابنهم ضد من عاداه، وقد كان إجماعاً رائعاً لولا أن أبا لهب أفسد هذا الجمال، حيث وقف ضد ابن أخيه وضد قومه بني هاشم، وعلى الرغم من ذلك فقد سُرَّ أبو طالب سروراً عظيماً باستجابة الهاشميين له، وتجمعهم حوله للذود عن شرفهم المتمثل في دعوة هذا الفتى العظيم، الصادق الأمين، محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، وقد بدأ العداء شديداً، فقريش تريد وقف هذا النور العظيم وإطفاءه، وأبو طالب وبنو هاشم استعدوا للمواجهة والصدام مع هذه القوى التي أرادت النَّيْل من ابْن بارّ من أبنائهم على الاطلاق ـ حتى أن أبا طالب عبر عن هذا بقصيدة جاء فيها[1]:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم — وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى — وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا أظنة — يعضون غِيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة — وأبيض غضب من تراث المقاول
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي — وأمسكت من أثوابه بالوصائل

(١) الأبيات من سيرة ابن هشام ١/١٦٤، ١٦٥، ط. دار التراث العربي ـ مصر ـ تحقيق د. حجازي السقا.

قياماً معاً مستقبلين رتاجه لدى حيث يقضي حلفه كل نافل

وظل ينشد في قصيدته الطويلة هذه إلى أن قال في نهايتها:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب لدينا ولا يعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرومة يقصِّر عنها سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
وأيّدهُ رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقه غير زائل

وقد علق ابن هشام في السيرة قائلًا: هذا ما صح لي من هذه القصيدة.

عتبة يفاوض الرسول ﷺ:

ولم تعدم قريش الجهد في استمالة محمد باللين والسياسة، فأرسلت من يفاوضه فقد كان عتبة بن ربيعة (أبو الوليد) من أشراف قريش وصهر أبي سفيان بن حرب فهو والد هند زوجة أبي سفيان ـ وكان معروفاً بينهم باللين والسياسة والدهاء.

جلس أبو الوليد مجلسه في نادي قريش، بينما جلس رسول الله ﷺ في المسجد وحده ـ فقال عتبة لقريش: «يا معشر قريش، ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟»[1].

كان ذلك حين أسلم حمزة عم النبي، ورأت قريش أن أصحاب رسول الله يزيدون ويكثرون.

---

(١) انظر مختصر السيرة، دار النفائس إعداد محمد عفيف الزعبي.

فقالوا لعتبة بن ربيعة: يا أبا الوليد، قم إليه وكلّمه.

فقام إليه عتبة حتى جَلَس إلى رسول الله ﷺ فقال: يا ابن أخي، إنك منا حيث قد علمت من السِّطة (أي الشرف) في العشيرة. والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرّقت به جماعتهم، وسفّهت به أحلامهم، وعِبْتَ به على من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أُموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها.

فقال له رسول الله ﷺ: «قُل يا أبا الوليد أسمع».

قال أبو الوليد: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً[1] تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نُبرئك منه، فإنه ربما غلبت التابع (الصاحب من الجن) على الرجل حتى يداوى منه، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه قال: «أقد فرغت يا أبا الوليد؟».

قال أبو الوليد: نعم.

فقال ﷺ: «فاسمع مني يا أبا الوليد».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ

(١) يقصد بريئاً: وهو (أي ما يتراءى للإنسان من الجن).

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَـٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٨﴾ ۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴾[1].

ثم مضى رسول الله ﷺ فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عُتبة أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها يسمع منه، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى آية السجدة منها، وهي قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾[2].

سجد رسول الله ﷺ سجدة الآية السابقة، ثم جلس وقال:
ـ «قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك»[3].

فقام عُتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: إن عتبة قد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به..!!

(١) سورة فُصِّلَتْ: الآيات ١ ـ ١٠.
(٢) سورة فصلت: الآية ٣٧.
(٣) انظر سيرة ابن هشام.

فلما جلس إليهم قالوا، ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسِّحْر ولا بالكهانة. يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وأن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

قالوا: سَحَرَكَ والله يا أبا الوليد بلسانه.

قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.

لقاء عام:

كان لا بد لقريش وأشرافها أن تلتقي بالرسول ﷺ لقاءً عاماً يجمع شيوخها وأشرافها بعدما فشا الإسلام بمكة بين القبائل رجالاً ونساءً، وقد جاهدت قريش في منع ما تستطيع منعه، وفتنت من استطاعت فتنته ممَّن اتبعوا محمداً ﷺ، وقد اجتمع أشراف قريش من كل قبيلة وهم: عُتْبَة بن ربيعة، وشَيْبَة بن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنَّضْر بن الحارث، وأبو البَخْتَري بن هشام، والأسود بن المطلب بن أسد، وزُمْعَة بن الأسود، والوليد بن المُغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبدالله بن أبي أُمية، والعاص بن وائل السهمي، وأُمية بن خلف.

هؤلاء الذين أمسكوا بزمام الأمر في مكة، ونسبوا إلى أنفسهم الشرف والنسب، واحتسب الناس فيهم ذلك، جلسوا جميعاً بعد غروب

شمس يوم من أيام مكة عند ظهر الكعبة المشرّفة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه، فبعثوا إليه: إن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك فأتهم. فجاءهم رسول الله ﷺ على عجل منه، وقد أحسن الظن بهم، وعلا وجهه التفاؤل؛ لأنه ﷺ كان يحب الرشد فيهم، ويكره عنادهم وجَوْرهم وأذاهم(١).

حضر رسول الله ﷺ وجلس إليهم، فقالوا له: يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعِبْتَ الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي أمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك، فإن كنتَ إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنتَ إنما تطلب به الشرف فينا فنحن نسودك (أي نجعلك سيداً) علينا، وإن كنت تريد به مُلْكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطب لك حتى نُبرئك منه أو نُعْذِر فيك.

وقف رسول الله ﷺ ليجيب على فهمهم الخاطىء لما جاء به من دين، وما كُلِّف به من رسالة سامية عظيمة فقال:

«ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم ولا

(١) سيرة ابن هشام ما دار بين الرسول ورؤساء القبائل (مختصر النفائس ص ٥٠).

الشرف فيكم ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي ونَصَحْتُ لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم»(١).

كان هذا الحديث هو الفيصل بين اللين والسياسة وبين الشدة والضعف، كان هذا بمثابة المرحلة الأولى في عَدَاء النبيِّ ﷺ، وهي محاولة إقصائه عما حمل من رسالة باللين والسياسة فبدؤوا بإغراء عمه والضغط عليه من خلال أبي طالب الذي رباه، فكان أبو طالب متفهماً لوجهة نظر ابن أخيه فأجل فيه إصراره وقال له: اذهب والله لا أُسلمك لأحد أبداً.

المرحلة الثانية

المرحلة الانتقالية:

وقبل أن تنتقل قريش من سياسة اللين والتلطف إلى سياسة العَدَاء القاسي والخصومة البعيدة المدى، التي استخدمت فيها كل وسائل العنف من تعذيب أتباع محمد إلى محاولة النيل من ذاته ﷺ بقتله أو اغتياله، قبل أن تنتقل إلى هذا كله، كان التحدي قد أخذ شكلاً غير اللين، فبدؤوا يطلبون منه مطالب دنيوية دارت بأذهانهم المتخلفة، فقالوا له في نفس اللقاء السابق:

يا محمد، فإن كنت غير قابل منا شيئاً مما عرضناه عليك فإنك

(١) سيرة ابن هشام ص ٥٠.

قد علمت أن ليس من الناس أحد أضيق بلداً، ولا أقل ماء، ولا أشد عيشاً منا، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسيِّرْ عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، وليبسطْ لنا بلادنا، وليفجرْ لنا فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آبائنا، وليكن فيمن يبعث لنا منهم قُصَيّ بن كلاب، فإنه كان شيخ صِدْق فنسألهم عما تقول، أحق هو أم باطل فإن صدقوك وصنعت ما سألناك وعرفنا به منزلتك عند الله، وإنه بعثك رسولاً كما تقول!!

بدت لهجتهم ساخرة في حديثهم السابق تدل على ما انطبع في نفوسهم من محمد ﷺ من سوء سيترجم في مطالب أخرى، لكن محمداً ﷺ مضى للنهاية يبين لهم أنه ما جاء لهذا فقال لهم:

ـ «ما بهذا بُعثتُ إليكم، إنما جئتكم من الله بما بعثني به، وقد بلّغتكم ما أُرسلت به إليكم، فإن تقبلوه فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وأن تردوه علي أصبرْ لأمر الله تعالى، حتى يحكم الله بيني وبينكم».

ولم يتوقف الجدال والسخرية، بل تحول إلى زاوية أخرى تثير في نفس السامع شيئاً، بل وأشياء، إلا أن محمداً كان على قدر سمو رسالته وعظمة منهجه الذي صاغه له ربه، وصيغت مع هذا المنهج نفسه الرحيمة وطبيعته السمحة المتسامحة أيضاً فكان مع هذا كلِّه رؤوفاً رحيماً، معلماً رسولاً بمعنى الكلمة.. فلم ينفرط عقد عنده من جراء هراء هؤلاء وهؤلاء ـ وإنما أجابهم بلغة الواثق المتمكن المدرك لأبعاد رسالته العظيمة ـ واستمر مجلسهم الانتقالي ومرحلتهم الانتقالية من اللين إلى العنف والمواجهة فقالوا لمحمد ﷺ أيضاً:

فإذا لم تفعل هذا لنا لنخذلنك، وسل ربك أن يبعث معك مَلَكاً يصدقك بما تقول ويراجعنا عنك، وسله فليجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة، يغنيك بها عما نراك تبتغي لنفسك، فإنك تقوم بالأسواق كما نقوم، وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً فيما تزعم.

ورغم أنَّ النبي ﷺ قال لهم: ما أنا بفاعل، وما أنا بالذي يسأل ربه هذا، وما بعثت إليكم بهذا، ولكن الله بعثني بشيراً ونذيراً، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة.. وإن تردوه عليَّ أصبر لأمر الله، حتى يحكم الله بيني وبينكم.

رغم هذا، فإن العودة إلى آيات من القرآن قد وعدتْ النبي ﷺ ببعض ما طلب منه الكفار والبعض عُرِضَ عليه، فأبى مؤكداً أن دعوته لا تقوم على أسس دنيوية زائلة. فحين عرضتْ عليه جبال مكة كي تكون ذهباً خالصاً، أبى ذلك شاكراً نعمة الله التي أنعم بها عليه، وهي نعمة الإسلام، وفي موطن آخر، نزل قول الله عزَّ وجل: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾(١).

وعندما ذهب النبي إلى أهل الطائف، ونال من أذاهم ما نال، جاء مَلَك الجبال ومعه جبريل عليه السلام يقول الرسول عن هذا اليوم عندما سألته عائشة رضي الله عنها قائلة: هل أتى عليك يومٌ كان أشد من يَوْم أُحد؟

(١) سورة التحريم: الآية ٤.

قال ﷺ: «لقد لقيت من قَوْمِك ما لقيتُ، وكان أَشَدّ ما لقيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إذْ عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل ابن كُلالٍ[1]، فلم يُجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب[2]، فرفعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إنَّ الله قد سَمِعَ قول قومِكَ لكَ، وما رَدُّوا عليك، وقد بَعَثَ الله إلَيْكَ مَلَكَ الجبالِ لِتَأْمُرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني مَلَكُ الجبالُ، فسلم عَلَيَّ، ثم قال: يا محمد، فقال: ذلك فيما شئتَ، إن شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عليهم الأخشبين؟ (أي: جبلين حول مكة)؟.

فقال النبي ﷺ: «بَلْ أرجو أن يُخْرِجَ اللَّه من أصلابهم من يعبد اللَّه وحدَهُ، لا يشرك به شيئاً»[3].

كانت هذه هي ردة فعل محمد ﷺ عندما أرسل إليه ربه بقوة لم يشأ أن يصرح بها أمام قومه، إنها قوة خرجت عن دائرة تفكير هؤلاء، فَضَرْبُ جبلين بعضهما البعض لم يصل إليه فكرُ الإنسان حتى عصرنا هذا، ورغم هذا لم يَدخل الغرور في نفس محمد ﷺ، فقد كان في استطاعته أن يحطم كل من يقف في طريقه لو أراد، ولكنه رجى ربه ودعاه أن يُخرج من أصلاب هؤلاء من يعبد الله وحده، لا يشرك به

(١) شيخ ثقيف قبيلة في الطائف.
(٢) موضع بقرب مكة.
(٣) رواه البخاري، ٦٣ كتاب ـ بدء الخلق ـ ٧ باب إذا قال أَحَدُكُم: آمين والملائكة من السماء ٣٠٥٩ وأخرجه مسلم في الجهاد والسير ـ باب ما لقى النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين.

شيئاً، ذلك ما أودعه الله في نفسه رحمة وتسامحاً، إذ يقول عزَّ وجل: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية ١٠٧].

ورغم كل هذا فقد تميزت المرحلة الانتقالية من اللين إلى العنف ـ تميزت بالتكبّر الشديد والغرور الجاهل ـ فمنهم من يقول لمحمد في هذا المجلس بالذات:

ـ فأسقط السماء علينا كِسفاً[١]، كما زعمت إنّ ربك إن شاء فعل، فإنّا لا نؤمن لك إلا أن تفعل.

وقال آخر في تكبّر وغرور على لسان القوم حاضري المجلس:

ـ يا محمد، أفما عَلِم ربك أنّا سنجلس معك ونسألك عما سألناك، ونطلب منك ما نطلب، فيتقدم إليك فيعلمك ما تراجعنا به، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به؟ إنه قد بَلَغَنا أنك إنّما يعلّمك هذا رجلٌ باليمامة يقال له «الرحمن»[٢] وإنّا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً، فقد أعذرناك إليك يا محمد، والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا[٣]..!!

هنا عَبَّر القرشيون عما في نفوسهم وخرجوا من المرحلة الانتقالية، وهي مرحلة السخرية والتهكم بعد اللين، والسياسة إلى العنف والعداء لشخص محمد ﷺ متمثلاً في دينه الذي حاولوا إثناءه

(١) كسفاً: قطعاً من الشيء.
(٢) المقصود هنا بالرحمٰن هو مسيلمة بن حبيب الحنفي، المعروف بمسيلمة الكذاب، وكان قد تسمى بالرحمٰن من الجاهلية.
(٣) انظر السيرة النبوية.

عنه، فقالوا كلمة صريحة: «لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلكك أو تهلكنا».

وبدأ هراء بعضهم في نهاية المجلس، فمنهم من يقول:

ـ نحن نعبد الملائكة، وهي بنات الله..!!

ومنهم من يقول: لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً.

كانت هذه الكلمات هي نهاية مجلسهم، فقام محمد ﷺ وترك مجلسهم وخرج معه رجل من عشيرته وهو ابن عمته عبدالله بن أبي أمية بن المُغيرة، الذي أسلم بعد ذلك لسنوات.

وفي الطريق قال له ابنُ عمته عبدالله:

ـ يا محمد، عرض عليك قومك ما عرضوا أفلم تقبله منهم، ثم سألوك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول: ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلَّماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول: وأيم الله لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك!!![1].

لعلها نظرة حزن التفتها رسول الله ﷺ إلى ابن عمته، ثم انصرف عنه إلى أهله حزيناً كاسفاً لِمَا رآه من قوم كان يطمع في

(١) والعجيب أنه أسلم قبل فتح مكة دون أن يرى شيئاً من كل هذا الذي كان يهذي به.

رشدهم وعقلهم، فوجد عنتهم وعنادهم يفوق ما يرجوه منهم وبدأت على الفور المرحلة التالية، وهي مرحلة الإيذاء والإساءة إلى محمد وأصحابه وأتباعه.

المرحلة الثالثة

أ ــ عداء إلى حد الموت:

صرخ أبو جهل عندما انصرف رسول الله ﷺ عن مجلسهم قائلاً:

ــ يا معشر قريش، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

فقال بعضهم لهذا العدو اللدود:

ــ والله لا نتركك أبداً، ونحن معك، فامض لما تريد.

وجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما هو فاعل ومضى أبو جهل لتنفيذ خطته، فلما أصبح أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله ﷺ ينتظره، وغدا رسول الله ﷺ كما يغدو، وكانت القِبلة يومها إلى الشام ـ فكان إذا صلى محمد ﷺ صلى بين الركنين اليماني والأسود، وجعل الكعبة بينه وبين الشام ـ فقام يصلي رسول الله ﷺ، فلما سجد، إذ احتمل أبو جهل حجراً كبيراً، ثم أقبل على محمد حتى دنا

منه، وفجأة رجع منهزماً ممتقعاً لونه خائفاً مرعوباً من الهم والفزع الذي أصابه وقد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده، وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: ما لك يا أبا الحكم؟

قال: قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه اعترض طريقي فحل من الإبل ما رأيت مثل هامته من قبل، ولا مثل طول عنقه وقصرته ولا أنيابه لفحل قبله قط، فهمَّ بي أن يأكلني!!.

هذه هي عصمة الله لنبيه الكريم ﷺ فقد قال عز وجل في محكم آياته عن العصمة: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ عندما سمع قصة أبو جهل:

«ذلك جبريل عليه السلام، لو دنا لأخذه»(٢).

نعم لو اقترب أبو جهل من الرسول ﷺ لأخذه جبريل. وما أخْذُ جبريل؟ إنه أخذ بلا عودة لهذه الدنيا.

ب ـ تعذيب المستضعفين:

اتجه سادة قريش إلى عبيدهم الذين دخلوا دين الإسلام وإلى الضعفاء بوجه عام ينزلون بهم أشد العذاب، ومن أشهر الذين نزل بهم الضرّ وعانى من شدَّة العذاب، بلال بن رباح.

(١) سورة المائدة: الآية ٦٧.
(٢) انظر مختصر السيرة ـ محمد عفيف الزعبي ـ النفائس ص ٥٣.

لعل من أسبق من نزل بهم الظلم هو بلال بن رباح، الذي اعتنق الإسلام وهو صادق، وملأ الإيمان قلبه وهو طاهر، وكان بلال عبداً مملوكاً لسيده أُميَّة بن خَلَف الذي ما إن عرف بإسلام عبده بلال حتى صار يأخذه في وقت الظهيرة وقد اشتعلت الرمال في بطحاء مكة من شدة الحر ثم يأمر بصخرة عظيمة فتوضع على صدره ويهدده أُمية قائلاً:

ـ ستظل على حالك هذا حتى تموت أو تكفر بدين محمد ﷺ وتعبد اللاَّتَ والعزّى.

فماذا كانت إجابة بلال يا ترى؟ كان يعلن التوحيد قائلاً: أَحَدٌ أحد.

ويمر أبو بكر الصديقُ مشفقاً على أخيه في الإسلام بلال بن رباح، فيقول لأُميةَ ـ ألا ترحم هذا المسكين؟.

فيقول أُمية بن خلف: أنت الذي أفسدته، إن كنت مشفقاً عليه، فأنقذه مما هو فيه فأنقذه أبو بكر الصديقُ عندما اشتراه من أمية وأعتقه[1]. وكان ممن أعتق أبو بكر من المستضعفين بعدما اشتراهم:

عامر بن فَهِيرة وأم عُبَيْس وزِنِّيرةَ التي فقدت بصرها، فقال الكفار من قريش لها: ما ضاع بصرك إلا لأنكِ تركتِ عبادة اللاّت والعزّى.

فقالت: كذبتم والله لا تضر اللات والعزى ولا تنفعان، فرد الله بصرها. ومرَّ أبو بكر الصديق رضي الله عنه بامرأة يقال لها النَّهْدية

(١) انظر الطبري ٢٣٨/٢ وما بعدهما. وسيرة ابن هشام.

ومعها ابنتها وكانا يخدمان امرأة من بني عبدالدار التي كانت تعذبهما لإسلامهما فلمـا رأى أبو بكـر حالهما وأشفق عليهما قال للمرأة التي تملكهما:

ـ رفقاً بهما يا أمُّ.

فقالت له: أنت أفسدتهما بدخول الإسلام فأعتقهما.

فسألها أبو بكر: كم تريدين ثمناً لهما؟ فحدَّدت المرأة الثمن، الذي دفعه أبو بكر على الفور وأعتقهما في الحال.

ومما يروى أن والد أبي بكر «أبا قحافة» كان يلومه؛ لأنه يشتري ضعافاً ويعتقهم وكان يقول له: لو أنـك أعتقـت رجالاً أشداء يمنعونك ويقومون دونك لكان أفضل.

فأجابه أبو بكر قائلاً: يا أبت إنما أريد وجه الله عزَّ وجلَّ، ويقال إنّه نزل فيه قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[1].

ومن المستضعفين الذين عُذِّبوا في مكة «آل ياسر»، فتعرض ياسر وزوجته سمية وابنهما عمّار إلى تعذيب شديد، فما خلا هذا التعذيب من الضرب والحرمان من الطعام، وتوثيقهم ثم إلقائهم في نار صحراء مكة ورمضائها الشديدة الحرارة، وكانوا يضعون الحجارة الساخنة فوق أجسامهم وترك الصبية للعَبَث بهـم، كل ذلك لأنهم أعلنوا إسلامهم، وكان الرسول ﷺ يمر بهم قائلاً: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة».

(١) سورة الليل: الآيات ٥ ـ ٧.

وقد استُشهِدَت سمية وكانت أول شهيدة في الإسلام عندما طعنها الكافر الزنديق أبو جهل بحربة فقتلها، ومات زوجها ياسر أيضاً من التعذيب، أما عمّار فقد ظلّ على إسلامه وعاش نصر الإسلام وعظمته.

أما عبدالله بن مسعود فكان المسلم الجريء الذي جهر بالقرآن لأول مرة في مكة رغم تحذير المسلمين له من التعذيب والإيذاء، فقد كان ضعيفاً، إذا لم يكن له أهل أو عشيرة تدفع عنه الأذى وتحميه من هؤلاء الطغاة كفّار مكة، ولكن ابن مسعود لم يكترث بما يفعله هؤلاء فقد كان القرآن في نفسه قوة هادرة لا يعدلها شيء في الدنيا، فمضى إلى الكعبة وراح يقرأ على مسمع من كل كفار مكة وبصوت جهوري عال - راح يقرأ قول الله تعالى:

بسم الله الرحمٰن الرحيم: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾(١).

فصاح القوم في وجه بعضهم بعضاً، وقال بعضهم: ماذا يقول ابن أم عبد؟ إنه يتلو بعض ما نزل على محمد.. وفزع الكفار في الكعبة، وقاموا إلى ابن أم عبد يضربونه في وجهه وهو لا يبالي حتى سقط مغشياً عليه، ولما أفاق صدح صوته بسورة الرحمٰن ولا يبالي بما

---

(١) سورة الرحمٰن: الآيات ١ - ٩.

يفعله الكفار معه. ولما علم أصحابه نصحوه خوفاً عليه فقال: «ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن، ولئن شئتم لأغادينَّهم غداً بمثلها».

فقال الصحابة رضوان الله عليهم: حسبك قد أسمعتهم ما يكرهون.

جـ ــ تعذيب السادة:

لم تتوقف قريش عند هذا الحد بل امتدَّ العداء إلى أبناء القبائل وهم في حكم السادة، وقد ذهبت قريش إلى حد أنها اقترحت على القبائل أن تُمسك كل قبيلة بمن أسلم من رجالها فيُنزلون بهم العذاب.

ومن أشراف مكة الذين عُذِّبوا بسبب إسلامهم:

١ ــ **أبو بكر الصديق وطلحة بن عُبَيد الله**: وكلاهما من بني تَيْم أسلما ودخلا قافلة الإسلام، فما كان من شيخ بني تيم نوفل بن خُوَيلد وزعيمها الكافر الذي حالف الشيطان وابتعد عن الحق واتخذ موقفاً عدائياً من النبي ﷺ ، فقد أمسك زعيم تيم (نوفل بن خويلد) بأبي بكر وطلحة بن عبيد الله فقرنهما بحبل وطاف بهما للتنكيل ظنّاً منه أن ذلك سيمنعهما من اتباع دين الحق، ولكن كان هذا الموقف بمثابة وسام على صدر كل منهما، ولذلك كانا يسميان القرينين، وكان طلحة بن عبيد الله يفخر أن قُرِن مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنهما.

٢ ـ مصعب بن عُمَيْر: كانت قضية مصعب بن عمير مع أمه التي حاربته وحرمته من كل شيء وكانت سيدة غنية، ولم يهتز مصعب ولم يتراجع، بل كان حريصاً كل الحرص على طاعة الرسول ﷺ ورضا الله سبحانه عز وجل.

كان مصعب ذا جاه ومال، يُوصف دائماً بزينة المجالس والندوات، وقد أسلم مصعب وأخفى إسلامه عن أُمه «خُناس بنت مالك» ذات الشخصية القوية المهابة من قومها صاحبة النفوذ والمكانة، وعندما عُلمَ إسلام مصعبَ واجه صراعاً شديداً مع عشيرته وعلى رأسهم أُمه «خناس»، فحبسته في حجرة من حجرات البيت، ولكنه استطاع بحيلة منه أن يفرّ من هذا السجن، وأن يهاجر إلى الحبشة تاركاً المال والجاه، وأمه التي نصابت العَدَاء له وللنبي ﷺ، وآثر البعد عن وطنه وماله ومكانته العظيمة بين شباب مكة، وعاد من الحبشة فقيراً بعد أن كان غنياً يرفل في ثياب النعيم.. وواصل رسالته فكان أول سفير للنبي ﷺ في المدينة.

٣ ـ عثمان بن عفان: وهو غني عن التعريف، فقد سجنه عمه الحكم بن العاص في حجرة مظلمة وقُيِّد بسلاسل من حديد، وهدَّده بأن يُبقي عليه هكذا حتى يرجع عن دين محمد ليعود إلى دين قومه، ولكن عثمان أبى أن يترك دينه وظل على عهده بمحمد حتى أصبح من خلفاء النبي ﷺ.

٤ ـ أبو حذيفة بن عُتبة بن رَبيعة: كان أبوه سيد قريش في هذا الزمان، من فصحاء العرب وأكثرهم بلاغة، وهو والد هند زوجة أبي سفيان، وكان رجلاً وثنياً كافراً غليظاً، وقد أسلم أبو حذيفة وحَسُن

إسلامه فطرده أبوه شرَّ طردة فأصبح فقيراً، ولكنه كان سعيداً بدينه رغم الفَقْر والحاجة، وقد أبلى بلاءاً حسناً في غزوة بدر.

٥ ـ **سعد بن أبي وقاص**: امتنعت أمه عن الطعام بعد أن قالت له:

ـ لَتَدعنَّ دين محمد أو لا آكل ولا أشرب، حتى أموت وحينئذ يعيِّرك الناس بي.

ولم يهتم بها سعد، وصامت حتى انهارت قواها، وأشرفت على الهلاك، فلما رآها على هذه الحالة قال: والله يا أمي، لو كانت لك سبع أرواح، فكلي إن شئت أو لا تأكلي.

ولما رأت إصراره على موقفه وتمسكه بدينه عادتْ إلى الطعام والشراب، ونزل فيه قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[1].

ولم تتوقف أُم سعد ـ واسمها «حَمْنَة» ـ لم تتوقف عن مناهضة ابنها، حتى أنَّ سعداً نفسه يروي قائلاً: عُدتُ يوماً إلى البيت فوجدت أُمي تصيح على الباب: ألا أعوان يعينونني على سعد من عشيرتي أو من عشيرته، فأحبسه في بيت حتى يموت أو يَدَعَ هذا الدين[2].

ترى ماذا فعل سعد عندما رأى وسمع هذا منها؟.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٨.

(٢) انظر سيرته من الإصابة، سير أعلام النبلاء، ط. مؤسسة الرسالة ـ بيروت ـ.

يقول سعد بن أبي وقّاص: لقد رجعت وابتعدت عن بابها وعن دارها حتى لا أصطدم بها، ثم بَعَثَتْ لي فرجعتُ، فكانت تلقاني مرة بالهدوء ومرة بالهجوم والشر.

ومضى «الأسد في براثنه» متجاوزاً كل الصعاب حتى أصبح عَلَماً من أعلام الإسلام يشهد له التاريخ الإسلامي يوم القادسية ويوم دخوله القصر الأبيض في المدائن، وقرأ قوله تعالى:

﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾(1).

رحم الله سعداً فقد احتمل الكثير وقاسى وصبر على العَداء حتى انتصر.

٦ ـ **الزبير بن العوام**: شأنه شأن أبي بكر الصديق، فقد سَخِطَ عليه عمه نوفل بن خُوَيلد فحبسه في حجرة وأطلق عليه الدخان حتى يختنق أو يعود إلى دين آبائه فيُفْرِج عنه، ولم يجد غير أُمه صفية بنت عبدالمطلب التي تصددت لزوجها، وأنقذته من الاختناق والسجن.

د ـ الاعتداء على الرسول ﷺ:

بدأ ذلك بهجوم من عدد من مشركي مكة على النبي ﷺ وهو يصلي، وقد أخذ أحدهم يخنقه بردائه، فجاء أبو بكر مسرعاً ودفع عنه الرجل وصرخ قائلاً: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟.

---

(1) سورة الدخان: الآيات ٢٥ ـ ٢٩.

أما أبو لهب وزوجه أم جميل فقد كان لهما دور عنيف في إيذاء النبي ﷺ، فقد كان أبو لهب أول من تحدى النبي ﷺ في مكة عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ولما جاء النبي ينصحهم ويدعوهم قال أبو لهب: تبًا لك ألهذا دعوتنا؟ وزوجه أم جميل التي كثيراً ما حملت الأشواك وطرحتها على باب الرسول ﷺ، وفي الطريق الذي يسير فيه، وعندما نزلت سورة المسد: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ حملت أم جميل حجراً لتضرب به الرسول ﷺ، وذهبت حيث يجلس الرسول مع أصحابه، ولكن الله أعماها وحجب بصرها عنه فلم تره، ورأت أبا بكر فصاحت به يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدتُه لضربتُ بهذا الحجر فاه، ثم انصرفت.

فقال أبو بكر للرسول: يا رسول الله أما تُراها تراك؟.

فقال عليه السلام: «ما رأتني لقد حجب الله بصرها».

ويجيء دور أبو جهل الذي اعتدى عليه بالقول الفاحش ويُلقي فوق رأسه القاذورات في أثناء صلاته.

والنَّضْر بن الحارث الذي هجى النبي بقصائده وسبّ المسلمين، وكثيراً ما عارضه في مجالسه مع أصحابه، مستهزئاً به وبالقرآن.

وأُبيٌّ بن خلف الذي تعرض للرسول ﷺ كثيراً وآذاه، ورغم كثرة عدائه له بقي الإسلام ينمو ويكبر، والله غالب على أمره.

الوليد بن المغيرة

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا
﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا
عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ
﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾
إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾
لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴾. [سورة المدثر: الآيات ١١ ـ ٢٩].

يقول الله تعالى متوعداً لهذا الخبيث الذي أنعم الله عليه بنعم الدنيا وكفر بأنعم الله وبدَّلها كفراً، وقابلها بالجحود بآيات الله والافتراء عليها، وجعلها من قول البشر، وقد عدَّد الله عليه نعمه حيث قال تعالى: ﴿ذرني ومن خلقت وحيداً﴾.

أي: خرج من بطن أُمه وحده لا مال له ولا ولد ثم رزقه الله تعالى: ﴿مالاً ممدوداً﴾ واسعاً كثيراً فيه الآف الدنانير وأرضاً واسعة ـ وغير ذلك ـ ثم رزقه الله ﴿بنين شهوداً﴾ لا يغيبون عنه فهم حضور

عنده[1] لا يسافرون بالتجارة، بل عندهم مواليهم وأجراؤهم يتولون ذلك عنهم وهم قعود عند أبيهم يتمتع بهم ويتملى بهم، وكان أبناء هذا الفاسق الفاجر عَشرة وهذا أبلغ في النعمة وأعظم للنفس، إذ يراهم حوله كل لحظة يقيمون عنده ولا يتركونه.

هذا الفاجر الفاسق يقول الله تعالى معدِّداً نعمه عليه: ﴿ومهّدتُ له تمهيداً﴾ أي: مكنته من صنوف المال والأثاث وغير ذلك.

رغَم كل هذا يصف القرآن جشعه فيقول:

﴿ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً﴾.

نعم فقد كان معانداً رغم علمه بكل هذه النعم التي أنعم الله بها عليه، ورغم ذلك يعاند ويكفر ويعادي النبي ﷺ.

لذلك فقد وعده القرآن بالعذاب الذي سيراه فقال: ﴿سأُرهقه صعوداً﴾ أي مشقة من العذاب، وعذاباً لا راحة فيه[2].

هذا الرجل هو: «الوليد بن المُغيرة» الذي يُعَدّ من سادة مكة فقد كان عالي الصيت في مكة، هذا الرجل لما جاءت الرسالة إلى محمد ﷺ، قال أهل مكة قولةً رواها القرآن الكريم وهي: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾.

كان الوليد بن المغيرة أحد هذين الرجلين لمكانته بين النّاس.

---

(١) هـذا قول مجاهد ـ انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٤٢ طبعة عيسى الحلبي ـ مصر ـ.

(٢) المصدر السابق ص ٤٤٢.

وقد ذهب هذا الفاجر الفاسق إلى النبي ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال:

يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ليعطوكه، لأنّك أتيت محمداً لتتعرَّض لما جاء به.

قال الوليد: لقد علمتْ قريش أنّي من أكثرها مالاً.

فقال أبو جهل: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له وأنك كارِهٌ.

فقال الوليد: «وماذا أقول فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده مني، ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إنَّ لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه مشرقٌ أسفله، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ما تحته»[1].

رغم هذا الكلام الذي قاله وأدركه عقله، إلا أنَّه كان سيىء الحظ لبعده عن الإيمان بهذه العقيدة السمحة التي جعلت القرآن الكريم دستورها الكامل والشامل فاستمع إلى هذا الشيطان الذي وسوس له، إنه أبو جهل أحد أكبر أعداء النبي ﷺ وأكثر عداءً وسوءاً، فقد أقبل عليه غير يائس من نتائج وسوسته وأكمل حديثه قائلاً:

«لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه ـ أي تشكك في دينه ـ

---

(١) لباب النقول في أسباب النزول للسيوطي ـ على هامش الجلالين ـ طبعة دار ابن كثير (١) دمشق ص ٦٣١.

وتـدعو النـاس إلى البعـد عنـه والإبقـاء على أصنـامهم و حجارتهم التي يسجدون لها وهي لا تضر ولا تنفع.

فقال الوليد لأبي جهل: فدعني حتى أُفكر.!!.

فتركه أبو جهل يفكر ووصفه القـرآن وهو ينكـر وصفاً عـظيماً فقال:

﴿إنّه فكّر وقـدَّر﴾ ـ أي تروَّى ـ مـاذا يقول في القـرآن حين سئل عن القرآن ففكر ماذا يختلق من المقال[1].

﴿فقتل كيف قدر﴾: رغم أنه تروّى، لكن هذا الرجل عجيب ـ لقد دعا عليه القرآن لجهله وسوء تفكيره وتقديره ـ ما أجهله كيف قدر هذا؟.

ويواصل القرآن وصف هذا الفاسق فيقول: ﴿ثم عبس وبسر﴾ ـ أي قبض بين عينيه وقطَّب جبينه وكره أن يقول كلمة حق أملاها عليه عقله، الذي أنعم به عليه خالقه، ثم إنه فكر وقال كـلاماً عـظيماً عن القرآن.

وفي النهاية ماذا فعل؟.

إنه ﴿أدبر واستكبر﴾ إنه صرف نفسه عن الحق، ورجع القهقرى مستكبراً عن الانقياد للقرآن ـ فقال إن هـذا ﴿إلا سحرٌ يؤثـر﴾ ـ إنه سحر ينقله محمد عن غيره ممن سبقه ويحكيه عنهم...

---

(١) ابن كثير ٤/٤٤٢.

ثم أضاف قائلاً: ﴿إنْ هذا إلا قول البشر﴾، أي: ليس بكلام الله!!.

لقد شكك عدو الله في الوحي ونزوله رغم علمه بحلاوته وطلاوته وعلوّهِ وتفرده ومثاليته. تُرى ما جزاء من أراد بالقرآن والرسول سوءاً؟.

لقد حُدِّدَ الجزاء: ﴿سأُصليه سقر﴾ إنها جهنم الذي سيُغمر فيها.

ويعود الفاسق إلى زمرة الفاسقين ولا يسمع نداء عقله الذي فَطِنَ لحلاوة هذا الكلام ونزل القرآن يقول: ﴿ذَرْني وَمَنْ خَلَقْتُ وحيداً ـ وجعلتُ له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ثم يطمع أن أزيد، كلا، إنّه كان لآياتنا عنيداً﴾.

وتمضي الآيات تتوعده حتى النهاية، ويسمع هو ما نزل فيه فيقول بعد أن سَمِع هذا الكلام الملتهب في معناه ـ العظيم في نهجه وشرعه وأسلوبه، سمعه وعلّق قائلاً: يتوعَّدني ولكنه جميل الأسلوب حتى في توعده وتهديده.

ومن صلب هذا الفاسق يخرج بطل من أبطال الإسلام، إنه خالد بن الوليد الذي قاد معارك المسلمين لضرب أذناب المرتدين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

وكان خالد بن الوليد بطلاً من أبطال فتوحات المسلمين، امتلأت به صفحات التاريخ الإسلامي.

واندحر هذا المعاند المستكبر الذي ظنَّ أنّ ماله وشعره ورأيه المسموع في قومه يستطيع أن يفعل شيئاً ضد محمد ﷺ، وأن يشكك في أشرف كتاب نَزَل على وجه الأرض.

كل هذا ذهب مع ذهاب هذا الرجل الذي أُصيب في جسمه بإصابة جسيمة ومرض عُضال لم يغن عنه ماله شيئاً ولا أبناؤه العَشَرة، ومن بينهم فارس من فرسان محمد ﷺ، وصدق قول رسول الله الذي جاء تحت المعنى الذي يقول: «لعل الله يخرج من أصلابهم المؤمن والصالح».

عدو الله
عقبة بن أبي معيط

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا ﴾[1].

تُرى من هو الظالم الذي يعض على يديه ندماً ويتمنى لو أنه اتّخذ مع الرسول سبيلاً؟.

ومن هو هذا الخليل والصديق الذي أضله عن الذكر بعد إذ جاءَهُ؟.

من هو العدو المجرم الذي اعتدى على حرمة الدين والرسول؟.

هذه المشاهد التي وصفها القرآن الكريم اختصَّ بها عدو من

(١) سورة الفرقان: الآيات ٢٧ ـ ٣١.

أعداء النبي محمد ﷺ، إنه عقبة بن أبي مُعَيْط.. زعيم من زعماء قريش كان شديد العداوة للإسلام، ولرسول الله ﷺ.

في البداية كان عُقبة بن أبي مُعيط يجلِسُ إلى رسول الله ﷺ ويستمع إليه، ويروى كذلك أنّ عقبة بن أبي مُعيط صنع يوماً وليمة ودعا لها أشراف قريش ووجهائها وذهب لمحمد ﷺ وقد كان النبي ﷺ جاراً لعقبة بن أبي معيط.. فدعاه إلى الوليمة فأبى الرسول عليه السلام أن يستجيب لدعوة جاره عقبة، حتى ينطق بالشهادتين فنطق بهما، فبلغ ذلك أُمية بن خلف فغضب من عقبة غضباً شديداً وجاءه وقد تملكته ثورة شديدة فصاح في وجهه قائلاً:

وجهي لوجهك حرام أن أكلمك إن لم تأت محمداً فتتفًل في وجهه.

ففعل ذلك عقبة بن أبي معيط وأصبح عدواً لله ولنبيه، فأنزل الله تعالى في عقبة وأُمية بن خلف قوله تعالى:

﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾. [سورة الفرقان: الآيات ٢٧ - ٢٩].

وبالغ عقبة في عَداءه للنبي ﷺ، وشرع في إيذائه وقد كان جاره وبئس الجار عقبة، ففي الكعبة كان الرسول ﷺ ساجداً خلف المقام فوضع عقبة رِجْله على عُنُقه، وألقى بثقله على رجله فما رفعها حتى

ظنَّ الرسول ﷺ أنّ عينيه تخرجان من موضعهما.

ولم يكتف بهذا الموقف، وإنما جاء مرَّة أخرى بفضلات شاة مذبوحة وألقاها على رأس الرسول الشريف وهو ساجد، وحاول بعض الناس أن يزيحها عن رأس رسول الله فمنعهم الكافر عدو الله، فجاءت فاطمة ابنة محمد ﷺ فنحَّتها عن رأسه.

وكان لهذا الظلم نهاية، كانت نهايته يوم النصر العظيم، يوم بدر، إذ تلاقى الفريقان وفارق القوة بينهما كبير جداً. وكان النصر للحق على الباطل وانتصر المسلمون نصراً عزيزاً سقط فيه كل دعاة الكفر وأئمة الفساد.

وقد ولى أهل مكة الأدبار كاسفاً بالهم، خاشعة من الذُّل أبصارهم، لا يكاد أحدهم يلتقي نظره بنظر صاحبه حتى يواري وجهه خَجَلاً من سوء ما حلَّ بهم جميعاً.

أما المسلمون فأقاموا ببدر إلى آخر النهار، ثم جمعوا الذين قُتِلوا من قريش فحفروا لهم قليباً (أي حفرة كالبئر) فدفنوهم فيه، وقضى محمد وأصحابه تلك الليلة في الميدان في شغل بجمع الغنيمة والسهر على الأسرى، وإذا جنّ الليل جعل محمد يفكر في نصر الله المسلمين على قلة عددهم، وخذلانه المشركين الذين لم يكن لهم من قوة الإيمان عضدٌ تعتز به كثرتهم.

وعندما فكَّر المسلمون في الأسرى كان من بينهم عُقبة بن أبي معيط الذي أمر الرسول بقتله، فأحس عقبة بن أبي معيط بأنه على وشك أن يقتل لسوء أفعاله وجرم أعماله استغاث بالرسول ﷺ قائلاً:

أتقتلني يا محمد وقد كنت جاراً لك؟.

فأجاب عليه السلام: «لقد كنت بئس الجار»[1].

ونظر محمد ﷺ إلى أصحابه قائلاً: «أتدرون ما صنع هذا بي؟ لقد جاءني وأنا ساجد خلف المقام فوضع رجله على عُنُقي، وألقى بثقله على رجله فما رفعها حتى ظننت أن عيني تخرجان من موضعهما».

وقتل المسلمون عدو الله وعدو رسوله، وسقط المجرم ولقي جزاءه العادل.

(١) انظر السيرة الحلبية أحداث يوم بدر.

أُبَي بن خلف
الفاسق

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ۝٧٩ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[1].

ضرب أُبيّ بن خلف مثلاً، ونسي خَلْقه.. جاء إلى رسول الله ﷺ مرة ومعه عظمة بالية، فَركها فتناثرت وقال للرسول ﷺ:

– يا محمد.. أنت تزعم أن الله يحيي هذه العظام؟!!.

وكان رد الرسول ﷺ على هذا الكافر الفاجر قوياً وحازماً، إذ قال له: «نعم أنا أقول ذلك، يحييه الله ويحييك ويدخلك النار».

والغريب أنه فرك العظام وسئل عمن يحييها ونسي أن في تكوين جسمه عظام خلقها الله سبحانه وتعالى. هذه جاهليته التي يسخر منها السامع لحجته الباطلة، والذي لو نظر إلى نفسه وتسائل كيف خلقه

---

(١) سورة يس: الآيات ٧٨، ٧٩، ٨٠.

الخالق؟ لَمَا تساءل على الرسول ﷺ، قائلاً: أنت تزعم أن الله يحيي هذه العظام!!.

لذلك فقد بيَّن القرآن الكريم الصورة بوضوح وحوار هادىء يسخر من عقول أمثال هذا الجاهل الفاسق فقال تعالى:

﴿وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه﴾ الآية.

وذلك عندما أمسك بقطعه عظامٍ بالية وفركها بيده فتناثرت في الأفق وقال: أنت تزعم أن الله يحيي العظام..

ويجيب القرآن على سؤال هذا الفاسق فيقول للرسول ﷺ:

﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرَّةٍ وهو بكل خَلْقٍ عليم﴾ الآية.

ورغم أن أُبي بن خلف بادر بضرب مثل عقيم يدل على ضيق أُفقه، إلا أن القرآن الكريم كالعادة كان كريماً في التعامل مع هذه العقول عندما استطرد في ضرب الأمثال قائلاً: ﴿الذي جعل لكم الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون﴾ الآية.

هكذا تخطى ضرب المثل بخلقه إلى ما حوله من كائنات تتصل بحياته اليومية.

ويشتدّ عداء أُبيّ بن خلف فيقول لمحمد في مكة:

«يا محمد إنَّ عندي العَوْد، أعْلِفه كلّ يوم فَرْقاً[1] من ذُرة أقتلك عليه»[2].

---

(١) الفرق: مكيال لأهل المدينة يسع ثلاثة أصواع.
(٢) انظر تاريخ الطبري ٢/٥١٨ سنة ٣ هجرية. دار سويدان ـ بيروت ـ.

هذا الوعيد الذي كان يتوعد به أبي بن خلف أحد كفّار مكة وفُجّارها الخبثاء لرسول الله ﷺ كلَّما لقيه، فيجيبه رسول الله ﷺ في حزم وقوة:

«بل أنا أقتلك إن شاء الله».

وما كان رسول الله ﷺ ليقول هذا لعدو من أعدائه وأعداء الله، ويقدم مشيئة الله حتى يَرِدَ من الخالق العظيم..

فقد مرت الأيام ويجيء يوم عظيم من أيام المسلمين، هذا اليوم هو يوم أُحد، كان قتال المسلمين بطولياً لولا أنّ رماة الجبل الذين كلَّفهم الرسول بحماية ظهورهم من فوق الجبل، استعجلوا الغنائم قبل نهاية المعركة فتركوا أماكنهم ونزلوا من فوق الجبل، مما كشف ظهر الجيش. فلما هُزم المشركون، ورآهم الذين كانوا من وراء المسلمين في الجبل قال بعضهم لبعض: هلمُّوا فأدرِكوا الغنيمة قبل أن يَسْبقَنَا إليها أَحَدٌ! وتركوا أماكنهم، فخلَّوْا ظهور المسلمين للخيل وأُتي بالمسلمين من خَلْفهم، فانكشفوا وأصاب منهم المشركون، وصرخ صارخٌ يقول: إن محمداً قد قُتِل، فانكفَأ المسلمون، وانكفأ عليهم الكفار ـ وخَلُص العدو إلى رسول الله، وقام عتبة بن أبي وقاص فرمى رسول الله بالحجارة، فأصيب في وجهه وجُرِحَ في شفته، وجعل الدم يسيل على وجهه، فصار يمسح الدم وهو يقول:

«كيف يُفْلِح قومٌ خضَّبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى ربهم».

ودخلت حلقتان من حلق المغفر، وهو شبيه بالدرع يوضع على

الرأس في الحرب دخلت في وجنتي رسول الله ﷺ، ووقع في حُفْرة، وغشيه القوم فقال عليه السلام: «من رجلٌ يَشْرِي لنا نفسه؟».

فقام زياد بن السكن في نفر خمسة من الأنصار، وقاتلوا دون رسول الله رجلاً رجلاً، حتى قتلوا جميعاً، حتى كان آخرهم زياد، فقاتل دونه حتى أثبتته الجراح، فوقف ثابتاً من كثرة ما أصابه لا يستطيع الحراك، ثم فاءت فئة من المسلمين فأجهضوهم عنه، وقاتل المسلمون رجالاً ونساءً دفاعاً عن رسول الله ﷺ ومن الصحابيات اللاَّتي دافعن عن الرسول ﷺ «أُم عمارة نسيبة بنت كعب» فكانت تدافع عنه بالسيف، وترمي عنه بالقوس حتى أُصيبت.

ودافع عن رسول الله ﷺ أبو دُجانة وسعد بن أبي وقاص الذين تصدوا للنبل بظهورهم دفاعاً عن رسول الله.

وساد الناس هَرْجٌ ومَرْجٌ بعد الهزيمة وقول الناس: قتل محمدٌ! مما أَضعف من معنويات المسلمين إلى أن عرفه كعب بنُ مالك، إذ رأى عينيه تضيئان وتلمعان من تحت المغفر فنادى بأعلى صوته:

ـ يا معشر المسلمين، أَبْشِروا، هذا رسول الله، فأشار إليه الرسول: أن أَنصت.

فلما عرف المسلمون رسول الله ﷺ نَهضُوا به، فأخذ علي بن أبي طالب بيده، ورفعه طلحة بن عبيد الله حتى استوى قائماً، وأزال مالك بن سنان الدم عن وجهه الكريم، ونزع أبو عبيدة إحدى الحلقتين، فسقطت ثنيَّتهُ وهو يعالج إخراجها، ثم نزع أبو عبيدة ثنيّته الأُخرى فسقطت، ونهض معهم نحو الشِّعْب، يصاحبه أبو بكر وعُمر ورَهْطٌ من المسلمين.

ولما صعد رسول الله ﷺ الجبل جاء الفاسق أُبي بن خلف وهو يقول: أيْنَ محمد؟.. أين محمد؟.. لا نجوتُ إنْ نجوتُ!.

فقال المسلمون: يا رسول الله؛ أيعطِفُ عليه رجلٌ منا؟.

ـ أي أيخرج إليه رجل منا فيقتله.

ونذكر هنا ما توعد بـه أُبي الرسـول ﷺ عندمـا قال للرسـول سأقتلك.

فقال رسول الله ﷺ: «دعوه» أي: اتركوه.

فلما دنا منه تناول حربةً من حراب أحد المسلمين، ثم استقبله فطَعَنَه في عُنقِهِ طَعْنَةً مال منها عن فَرَسِهِ مِراراً، ورجع إلى قريش وقد خُدِش في عنقه خَدْشاً غَيْرَ كبير فقال: قتلني والله محمد!.

فقال الكفار: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بَأْس؟.

لكن أُبي بن خلف كان يُحس بهول هذا الخَدْش البسيط الـذي أصابه من جَرّاء رمي الرَّسول له بهذا الرمح.. فاهتز منه عن فرسه مِراراً لقد ردَّ على القوم قائلاً:

إنه كان قال لي بمكة: أنا أقتلك!.

وعاد جيش الكفار إلى مكة مهزوماً هزيلاً وقد أصابه الخـزي والعار، أما أُبي بن خلف فقد ساءت حالته الصحية وهناك على بعـد ثلاثة أميال من مكة بمنطقة «سِرِف» لقي عدو الله وعدو نبيه الكريـم حتفه، ومات من جراء إصابته بهذا الخدش.

هذا جزاءه في الدنيا، أما حسابه في الآخرة فسيكون عسيراً.

«عمرو بن هشام» أبو جهل

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ
۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ۝١٢ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ۝١٤ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ
لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ۝١٥ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ۝١٦ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ۝١٨ كَلَّا
لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾. [سورة العلق: الآيات ٩ـ ١٩]

لعل أعظم قدوة نقرأها بين هذه السطور هي «صبر النبي ﷺ على كل صنوف الأذى التي لقيها من أعدائه وحلمه الذي بلغ مدى لا يدركه غيره صلوات الله وسلامه عليه».

فقد وصل أمر أعدائه إلى محاولة منعه عن الصلاة وعندما يصل الأمر إلى حد منعه من الصلاة فإن لخالقه في هذا الأمر شأناً عظيماً، ذلك ما تحدثت به الآيات السابقة عن عمرو بن هشام الذي اشتهر بين المسلمين باسم أبي جهل. فقد كان أبو جهل شديد العداء للإسلام، شديد العدوان على رسول الله ﷺ، فلم يقنع هذا الرجل بعدوانه على الضعاف والعبيد والمستضعفين ممن أسلموا وانضموا إلى قافلة

الإسلام المباركة، وكان يُلقي فوق الرسول ﷺ القاذورات في أثناء صلاته، وعندما حاول ذات مرة نهي الرسول عن الصلاة، زجره محمد ﷺ زجرة شديدة، وهدَّده، فقال أبو جهل:

يهدِّدني محمد وقد عَلِمَ أن ما بمكة رجل أكثر نادياً مني؟.

عندئذ أنزل الله آياته الكريمة التي تقول:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ۝١١ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴾.

﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١٣ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

وقد ذكر الرسول ﷺ صبر السماء عليه رغم بذاءته وانحطاط خلقه ودناءة نفسه، وغلظة حديثه، إذ قال عليه السلام:

«والله لو دعا ناديه لأخذته الملائكة».

لكنه أُجِّل إلى يوم معلوم نال فيه الخزي الشديد وسقط ذليلاً تحت أقدام المسلمين.

ولم يسلم محمد ﷺ من إيذاء هذا الفاسد القبيح، إذ بلغت به الدناءة أن مر بمحمد يوماً فآذاه وشتمه ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه والتوهين من أمره، فأعرض محمد ﷺ عنه وانصرف ولم يكلمه، وكان حمزة بن عبدالمطلب عم محمد وأخوه من الرضاعة، لا يزال على دين قريش، وكان رجلاً قوياً مهاباً، من ذوي السلطة في مكة، وكان ذا ولع بالصيد، فإذا رجع من صيده طاف بالكعبة قبل أن يعود إلى داره. فلما جاء في ذلك اليوم، وبلغه نبأ ما أصاب ابن أخيه

من أذى أبي جهل، فتملكه الغضب، ومضى مسرعاً إلى الكعبة ولم يقف محيياً ومسلماً على أحد ممن كان عندها كعادته، ودخل المسجد فوجد أبا جهل جالساً في القوم، فأقبل نحوه، حتى إذا بلغه رفع قوسه فضربه به فشجَّه شجَّةً منكرة ترنح على أثرها أبو جهل[1]، وساد هرج ومرج في المكان، وهزت المفاجأة كل رواد المكان، فقد ازداد بنو هاشم وبنو المطلب منعاً لمحمد ﷺ ودفعاً للأذى عنه، وقد أراد رجال من بني مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسماً للشر ومخافة استفحاله معترفاً أنه سبَّ محمداً سبّاً قبيحاً. واقتنع أنه أخذ جزاء جهله وبذاءة لسانه.

وعلى أثر هذا الموقف كسب محمد فارساً عظيماً ومسلماً مجاهداً، إنه حمزة بن عبدالمطلب، فقد أعلن حمزة إسلامه، وعاهد محمداً على نصرته والتضحية في سبيل الله حتى النهاية وكان من شهداء أُحد الذين بلغوا مبلغاً عظيماً فنعم أجر العاملين.

وقد بلغت دعوة محمد ﷺ مبلغاً عظيماً، عندما بدأ أبو جهل وأعوانه الذين هم أشد الناس خصومة وعداءً لمحمد، بدؤوا يسألون أنفسهم: أحقاً أنه يدعو إلى القيم، وأن ما يعدهم وما ينذرهم هو الصحيح؟.

فقد خرج أبو جهل وأبو سفيان بن حرب والأخنس بن شريق ليلةً ليستمعوا إلى محمد وهو في بيته، وقد أخذ كلٌّ منهم مجلساً يستمع فيه، وكل منهم لا يعلم بمكان صاحبه، وكان محمد ﷺ يقوم اللّيل

(١) انظر سيرة ابن هشام، ط. حياة محمد ص ١٦٧، دكتور هيكل.

إلا قليلاً يرتل القرآن في هدوء وسكينة، ويردد بصوته العذب آياته القدسية على أوتار سمعه وقلبه، فلما كان الفجر تفرق المستمعون وهم عائدون إلى منازلهم، حتى جمعهم الطريق فألقى كل منهم اللوم على الآخر، وقال بعضهم لبعض:

لا تعودوا! فلو رآكم بعض سفهائكم لأضعف ذلك من أمركم ولنصر محمداً عليكم.

فلما جاءت الليلة الثانية شعر أبو جهل في مثل الموعد الذي ذهب فيه بالأمس شعر بحاجة إلى تكرار هذا الموعد، وكأنَّ رجليه تحملانه من غير أن يستطيع امتناعاً ليقضي ليلَهُ حيث قضاه أمس، وليستمع إلى محمد يرتل القرآن ترتيلاً، وقادت قدما أبي جهل صاحبهما إلى دار محمد ﷺ خلسة وفي جنح الظلام، وإذا بصاحبيه أبي سفيان والأخنس قد اتخذا لهما مكاناً عند بيت محمد أيضاً، وعند الفجر عادوا جميعاً وجمعهم الطريق فتلاوموا من جديد، ولم يمنعهم تلاومهم من الذهاب في الليلة الثالثة حتى أحسوا بأن نفوسهم قد بدت تضعف أمام دعوة الحق، دعوة محمد ﷺ فاجتمعوا وتعاهدوا ألا يعودوا لمثل فعلتهم، وقد ترك ما سمعوا من محمد في نفوسهم أثراً جعلهم يطرحون السؤال تلو الآخر عن الرأي فيما سمعوا وقد سمعوا قولاً عظيماً.

ويسأل الأخنس بن شريق صاحبه أبا جهل مرة فيقول:

ما رأيك فيما سمعتَ من محمد؟.

فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف

الشرف؟ أعطوا فأعطينا، وحملوا فحملنا، وأطعموا فأطعمنا، حتى إذا تحاذينا وكنا كفرس رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء!!.

فمتى ندرك مثل ذلك؟ والله لا نتبعه أبداً.

وكان عناد أبي جهل هذا خروجاً بلا عودة جعله، يتمادى في إيذاء الرسول ﷺ، إذ يحسم أمره ذات يوم على أن يلقي حجراً كبيراً على رأس رسول الله وهو يصلي، وأعد عدته، وفي موعد صلاة النبي عليه السلام حمل الحجر وجعله ساجداً ورفع الحجر واتجه نحوه، ولكنه سرعان ما عاد خائفاً مذعوراً ممتقع اللون وقد أخذه الرعب، فألقى بالحجر، فلما سئل عما جرى قال: قمت إليه حتى دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل، ما رأيت مثل هامته ولا مثل عنقه ولا مثل أنيابه لفحل قط، فهمَّ بي أن يأكلني - وقد كان هذا جبريل عليه السلام، لو دنا منه لأخذه[1].

ومن ذلك أنه كان أبو جهل يهاب محمداً ويحس بالوهم أمامه، ومن ذلك ما روته السيرة الشريفة[2]: أن رجلاً من أراش وهي قبيلة عربية باع إبلاً يمتلكها إلى أبي جهل بثمن مؤجل، فلما طالبه الأراشي بالثمن مَاطَلَه أبو جهل وتأخر عليه، بل وكاد أن ينكر دَيْنه، عندئذ ذهب الأراشي إلى حشد من قريش حول الكعبة وقال له يا معشر قريش ما من رجل يؤديني ديناً على أبي الحكم بن هشام، فإني رجل غريب وقد غلبني على حقي؟.

---

(١) الإسلام في مكة، دار أحمد شلبي - مصر- وزارة الأوقاف جـ٢.
(٢) سيرة ابن هشام قصة الأراشي وأبي جهل.

فرأى أحد الجالسين أنها فرصة مؤاتية كي يهزأ برسول الله ﷺ، وكان الرسول يجلس في ناحية بعيدة عن القوم، فقال الرجل للأراشي: أرأيت هذا الجالس هناك؟ هو الذي يستطيع أن يأخذ لك حقك من أبي جهل.

وصدَّق الأراشي كلام القرشي، وذهب إلى الرسول وقص عليه الخبر، فقال الرسول للرجل: «انطلق معي إليه»، وذهبا معاً تجاه منزل أبي جهل.

وأراد القرشيون أن يعرفوا ما سيتم عليه الأمر، فألحقوا بالرسول والأراشي رجلاً منهم لينقل لهم خبر ما سيتم من أحداث، وعاد الرجل ليقول لقريش غير الذي ظنوه بمحمد، فقد دق الرسول ﷺ باب دار أبي جهل ورد أبو جهل سائلاً من الذي يدقُّ الباب؟.

فقال الرسول ﷺ: «أنا محمد، هيا أخرج لي».

فخرج أبو جهل وقد امتقع لونه وامتلأ خوفاً ورعباً، فقال له الرسول: «أعط هذا الرجل حقه».

قال أبو جهل: نعم في التو والساعة، ودخل وعاد ومعه ثمن الإبل وأعطاه للأراشي.

ولما جاء أبو جهل إلى الكعبة، قال له المشركون: ويحك يا أبا الحكم ماذا حدث لك؟.

قال: ويحكم أنتم والله ما هو إلا أن ضرب بابي وسمعت صوته حتى مُلِئتُ رُعباً، ولما خرجت إليه وجدت كأنه فوق رأسه قوة هائلة

أرعبتني، وأحسست أنني لو أبيت لهلكت، فعجب القوم من شأن أبي جهل وشأن محمد، ولكن ألا يتدبرون؟ ذلك جهلهم وجَهْلُ أبي جهل.

ومرت الأيام والسنون، وتعرض الرسول ﷺ لعدوان المعتدين، وشهد صنوفاً من مؤامرات المتآمرين، وصلت إلى حد اغتياله وقتله[1]. وخرج الرسول من مكة إلى المدينة مهاجراً بعد أن ترك المال والوطن والأهل والسكن وفي المدينة بدأ في تأسيس دولة الإسلام هو وصحبه من النخبة الفاضلة الذين هاجروا إلى المدينة بعد أن أُخرجوا من ديارهم، وأُجبروا على ترك أموالهم، فتركوا كل شيء خلفهم ولم يحفلوا بشيء غير حبهم لدينهم الحنيف، ومضى على وجودهم في المدينة عام وبدأ العام الثاني..

في هذه الأيام كان أبو جهل في نشوة السخرية من محمد ودينه بعد أن خرج من مكة فاراً ومهاجراً إلى المدينة بدينه، وبينما هو جالس في مجلس قريش كانت قافلة لقريش عائدة في الطريق إلى مكة، وقد بلغهم في مكة أن قافلة أبو سفيان مهددة من قِبَل محمد ﷺ وأصحابه، وقد استنفر محمد رجاله كي يستولي على ما فيها من أموال بدلاً من أموالهم الَّتي اغتصبها الكفار في مكة، وقد استأجر أبو سفيان ضَمْضَم بن عمرو الغفاري، وبعثه إلى مكة، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمداً قد عَرَض له، فخرج ضمضم مسرعاً إلى مكة.

---

(١) انظر كتابنا محاولات اغتيال النبي، مكتبة البخاري ـ الكويت ـ.

في هذه الأثناء كانت مكة كلها تتحدث عن رؤيا تتصل بهذا الموضوع، فقد رأت عاتكة بنت عبدالمطلب عمة الرسول ﷺ، قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفْزَعَتها، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبدالمطلب، فقال له:

يا أخي؛ إني رأيت الليلةَ رؤيا تخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌ ومصيبة، فاكتم عني ما أُحَدِّثُكَ به، قال لها: وما رأيت؟.

قالت: رأيت راكباً أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ـ وادي مكة ـ ثم صَرَخَ بأعلى صوته: ألا انفروا لِمصَارِعكم في ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا له، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هُم حوله مَثُلَ به[1] بعيره على رأسِ جبل أبي قبيس[2] فصرخ بمثلها، ثم أخذ صَخْرَةً فأرسلها، فأقبلت تهوي، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضَّتْ، فما بقي بيتٌ من بيوت مكة ولا دَارٌ إلا دخلتها منها فِلْقَة(أي :قطعة). قال العباس لأخته عاتكة: والله إن هـذه لَرؤيا! وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد، ثم خرج العباس فلقي صديقه الوليد بن عتبة، فذكرها له واستكتمه إياها، ولكن الوليد صرح بها للناس، فانتشـر الحديث بمكة، وتحدثت به قريش في أنديتها.

وغدا العباس بنُ عبدالمطلب يطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهْطٍ من قريش قُعُود يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآه أبو جهل قـال:

---

(١) مَثُلَ به: وقف به.
(٢) جبل بمكة.

ـ يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا، فلما فرغ أقبل حتى جلس معهم، فقال أبو جهل بن هشام برعونة وسخرية: يا بني عبدالمطلب، متى حدثت فيكم هذه النبيّه؟!!.

قال العباس: وما ذاك؟.

قال أبو جهل: تلك الرؤيا الّتي رأت عَاتِكة.

قال: وما رأت؟.

قال أبو جهل: يا بني عبدالمطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم! لقد زعمت عاتكة في رؤياها أن راكباً أقبل إلى مكة فقال: انفروا في ثلاثٍ! فسنتربص بكم هذه الثلاث.

«يقصد الأيام الثلاثة في رؤيا عاتكة».

فإن يك حقّاً ما تقول فسيكون، وإن تمضي الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتاباً أنّكم أكذب أهل بيت في العرب.

صمت العباس، كأنه يريد أن يقول، بل نحن أصدق أهل بيت في العرب ثم مضى إلى سبيله، وفي المساء جاءت نساء من بني عبدالمطلب يقلن للعباس في عتب شديد أن سمح لهذا الجاهل أن يقول هذا الكلام فقلن للعباس بن عبدالمطلب:

أقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رِجَالكم، ثم قد تناول النساء وأنت تسمَعُ، ثم لم يكن عندك غِيرَةٌ لشيءٍ مما سمعت!.

فقال العباس رضي الله عنه في حزمٍ شديد:

قد فعلت، وأيم الله لأتعرّضنَّ له، فإن عاد لأقْتَصَّنَّ.

وفي اليوم الثالث من رؤيا عاتكة قصد العباس المسجد، ودخل وهو مُغْضَب، ودخل المسجد فرأى أبا جهل، ومشى نحوه يتعرَّضُه ليعودَ إلى ما قاله فيقتصَّ منه ولكن العباس رأى شيئاً غريباً، فما أن اتجه إلى أبي جهل، حتى وجده يخرج من باب المسجد يعدو مسرعاً.

فقال العباس في نفسه: أكلُّ هذا خوفاً مني.

ولم يكن خوفاً منه، ولكن أبا جهل كان قد سَمِعَ صوتاً لم يسمعه، ذلك صوت ضمضم الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، وقد وقف على بعيره يقول: النجدة النجدة، اللطيمة اللطيمة، أنقذوا أموالكم مع أبي سفيان، لقد تعرَّضَ لها محمد وأصحابه، الغوث الغوث.

واستعدت قريش، وتجهزت سِراعاً لنجدة أبي سفيان، وخرجوا جميعاً إلا أبا لهب ـ وخرج أبو جهل مع جيش قريش، ولكن أبا سفيان كان اتخذ طريق الساحل بعيداً عن بدر الذي نزل بها جيش المسلمين، والتقى أبو سفيان مع جيش قريش، فقال لهم: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عِيركم ورِجالكم وأموالكم وقد نجونا فارجعوا[1].

فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِد بدراً، فنقيم عليه ثلاثاً فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتَعْزف علينا

(١) رجعنا لأحداث غزوة بدر في: تاريخ الطبري، سيرة ابن هشام.

القِيَان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها، فامضوا.

وعندما التقى جيش المسلمين وجيش الكفار في بدر كان الله مع المسلمين، وأمَدَّهـم بجنود لم يروها، وكتب لهم نصراً عظيماً، وقد ظنَّ أبو جهل أنها رحلة صيد يقضيها ويعود إلى مكة.

ولكن حكيم بن حزام وضع أبا جهل في اختيار نهائي قبل أن يلقى جزاءَهُ العادل، فقد جاء حكيم إلى عُتْبَةَ بن أبي ربيعة وقال له:

ـ يا أبا الوليد، إنَّكَ كبير قريش وسيدُها والمطاع فيها، فهل لك إلى خير تُذْكَرُ به إلى آخر الدهر؟.

قال عتبة: وما ذاك يا حكيم؟.

قال حكيم: ترجع بالناس.

فقال عتبة: قد فعلت، فأت أبا جهل، فإني أخْشَ على أمرِ الناس منه.

ثم قام عتبة خطيباً في الناس فقال: يا معشر قريش، إنكم والله ما تصنعون بأن تَلْقَوا محمداً وأصحابه شيئاً، والله لئن أَصَبْتُوهُ لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه؛ لأنه قتل ابن عمه أو ابن خاله، أو رجلاً من عشيرته، فارجعوا وخلُّوا بين محمد وسائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتُم، وإن كان غير ذلك ألفاكم[1] قد سالمتموه.

ثم مضى حكيم يبحث عن أبي جهل فوجده قد أخرج درعاً له

(١) أي: وجدكم.

من جرابها لإعدادها للقتال فقال له حكيم: يا أبا الحكم، إن عتبة أرسلني بكذا وكذا.

فقال أبو جهل غاضباً من عتبة: اشتد والله خوفه حين رأى محمداً وأصحابه[1]! كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد.

بلغ هذا الكبر مبلغه ـ وأفسد أبو جهل على النَّاس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة بن ربيعة، وانصرفت مشيئة الله أن يَبْقى هذا الفاسد على عناده وغروره، ويدخل معركة كانت نقطة تحول في دعوة محمد ﷺ، فكان لا بد من نصر بدر العظيم وضرب أئمة الكفر، لتحقيق الثقة والنصر لهؤلاء المستضعفين الذين تركوا أموالهم وديارهم في مكة سعياً وراء الحق وسبيله المستقيم.

ولما بلغ هذا التكبر عتبة بن ربيعة علّق قائلاً:

سيعلم من انتفخ سحره، أنا أم هو!.

أي: أن أبا جهل سيرى بنفسه من الذي خاف وجَبُن، أنا أم هو!.

ودارت المعركة العظيمة بين قوى الحق والباطل، وانتفخ سحر أبي جهل لما رأى سيوف المسلمين تجلجل في رقاب ونواصي الكفر والشرك، فما كانت نصيحة عتبة بن ربيعة حبّاً في الإسلام والمسلمين،

---

(١) لفظ أبو جهل: انتفخ والله سحره حين رأى محمداً وأصحابه ولكنا بطنا هذا النص. انظر الطبري أحداث بدر ٢/٢٦٧، وسيرة ابن هشام ٢/٢٣٨ وما بعدها.

ولكن خوفاً وجبناً لما رآه من قـوة المسلمين وإصرارهم على هـدم جدار الغرور والكبر لدى هؤلاء الذين ظنوا أنهم أشراف على الحق. .

وتشابكت السيوف وسقط أبو جهل بسيوف رجال من الأنصـار رضوان الله عليهم، ولما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه ونصره الله وأعزَّ جنده، أمر رجاله أن يلتمسوا أبا جهل في القتلى وقال:

«انـظروا ـ إن خفي عليكم في القتلى ـ إلى أثر جـرح في ركبتـه، فإني ازدحمتُ يوماً وأنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جُـدْعَان، ونحن غلامان، وكنت أكبر منه بيسير فدفعته، فوقع على ركبتيه فجحش[1] في إحداهما جحشاً لم يزل أثرهُ به».

ومر عبدالله بن مسعود فوجده بآخر رَمَقٍ فعرفـه، فوضـع رجله على عنقه وقال له: هل أخزاك الله يا عدو الله.

قال أبو جهل: وبماذا أخزاني؟!!.

قـال عبدالله: أعمـد مِن رجل قتلتمـوه! أخبرني لمن الـدائرة اليوم؟.

قال أبو جهل: لله ولرسوله.

ثم قـال له عبـدالله بن مسعود: لقـد ارتقيت مُرْتَقىً صعبـاً يا رُوَيْعي الغنم! ثم احتزَّ رأسه، وجاء به إلى رسول الله ﷺ قال: هذا رأس عدو الله أبي جهل.

---

(١) جحش: خدش.

وسقط عدو الله، وانتصر حبيب الله بعد صبر وسعة صدر، صبر على أذاهم وعدوانهم وسعة صدر لصلفهم وكبريائهم.

وكان يوم بدر عظيماً في نتائجه، فقد ارتفعت معنويات المسلمين، عندما تذكروا ضعفهم أمام هؤلاء الذين سقطوا أمامهم واحداً تلو الآخر، واهتزت أركان الشيطان لسقوط عدو خطير من أعداء النبي ﷺ.

النضر بن الحارث

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ۝٧ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٨ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[1].

كان هذا النضر من شياطين قريش، وكان قد ذهب إلى الحِيرَة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وعباداتها وأقوالها في الخير والشر وفي عناصر الكون.

وقد فكر الرسول ﷺ في مبادرة الحاجّ من مختلف قبائل العرب بالدعوة إلى الله، لذلك فقد اجتمع نفر من قريش إلى الوليد بن المغيرة يتشاورون: ماذا عسى أن يقولوا في شأن محمد للعرب القادمين إلى موسم الحج، حتى لا يختلف بعضهم على بعض ويكذّب بعضهم بعضاً، واقترح بعضهم أن يقولوا: إن محمداً كاهن، فرد الوليد هذا الرأي أن ليس ما يقول محمد بزمزمة الكاهن ولا بسَجْعة، واقترح آخرون أن يزعموا أن محمداً مجنون فرد الوليد هذا

(١) سورة الجاثية: الآيات ٧ ـ ٩.

الرأي بأنه لا تبدو عليه لهذا الزعم ظاهرة، واقترح غيرهم أن يتهموا محمداً بالسحر، فرد الوليد بأن محمداً لا يمارس السحر فلا ينفث في عقد ولا يأتي من عمل السحرة شيئاً، ويطول الحوار حتى يقترح الوليد اقتراحه المعروف وهو أن تقول قريش للحاجّ في مواجهة دعاية محمد ﷺ يقولوا: إن هذا الرجل ساحر البيان، وإن ما يقوله سحر يفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، واحتج الوليد على هذا بما يحدث في مكة من فرقة وتناحر، بعد أن كانت مكة مضرب الأمثال في الترابط وقوة الرابطة، واستمع الناس لقول الوليد، وفعلوا ذلك مع الحاج.

ولم تكتف قريش بهذه الدعاية، وإنما استخدمت شيطانها النَّضْر بن الحارث كي تعمي الناس عن الحق الذي جاء به محمد ﷺ، إذا أنه لا يمنع الناس إذا جاء الحق في بيان ساحر أن يؤمنوا به، لذلك فقد رأت قريش أن تدفع بالنضْر بن الحارث ليضيف إلى دعايتها قوة أكبر فتستطيع أن تشكك في حديث رسول الله ﷺ إلى القبائل القادمة من كل مكان في الجزيرة.

أخذ النضر بن الحارث يؤدي دوره الخبيث والدنيء معادةً للنبي ﷺ وتشكيكاً من حديثه الطيب، فبدأ ينظم قصائد شعرية في هجاء الرسول ﷺ.

وسبَّ المسلمين، واتخذ منهجاً خبيثاً في معارضة الرسول في مجالسه، فإذا جلس عليه السلام ليعلم أصحابه ويقرئهم القرآن الكريم، جلس النضر غير بعيد منه يسمع ما يقوله، ثم ينتهز فرصة

استغراق الرسول في حديثه لينادي الناس ويقول لهم هلموا يا معشر قريش هلموا اسمعوا ما يقوله، إن ما يقوله محمد أساطير، أعرف أجمل منها، تعالوا أقص عليكم أساطير أجمل من الأساطير التي يقولها محمد ﷺ.

كان رجلاً خبيثاً سفيهاً شديد الإيذاء للرسول ﷺ والعدوان عليه، شديد الهجوم على القرآن الكريم، على الرغم من ثقافته ومعرفته بأساليب العربية ومكانة القرآن وأسلوبه العظيم، ولذلك فقد نزل فيه قول الله عز وجل الذي صدرناه به هذه الصفحات عنه، يقول عز وجل:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. [سورة الجاثية: الآية ٨].

وقد كان هذا الرجل إلى جوارِ ثقافته التي تعلمها من الفرس، كان غنياً فقد درّ عليه علم الطب ـ الذي تعلمه من أبيه في بيمارستان جند يشابور[١] ببلاد الفرس قبل الإسلام ـ درّ عليه مالاً وفيراً وضمن له جاهاً واسعاً في وسط قريش، فاستخدم غناه وجاهه في الهجوم على الرسول ﷺ وإيذائه، والتفرغ لمعارضته وجعل عِداء النبي متعة له ولذة فحقت عليه اللعنة.

وقد خانته مسيرته الظالمة ذات يوم فصاح قائلاً:

---

(١) الإسلام في مكة، د. أحمد شلبي ـ القاهرة ـ.

يا معشر قريش إنّ محمداً ليس غريباً عنكم، لقد عرفتموه حَدَثاً، فكان أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم من صدغيه الشيب، وجاءكم بما جاءكم به، قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر ولا هو بكاهن ولا هو بشاعر، ولا هو بمجنون: يا معشر قريش انظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم[1].

حتى وصل فجور هذا الرجل، وعناده أنّه قال بأنه سينزل قرآناً مثل ما أنزل الله، وسيأتي اليوم الذي يمسك المسلمون بكل أفعاله السيئة هذه، فلا ينال منهم رحمة ولا شفقة.

وجاء اليوم إنّه يوم بدر العظيم، فقد انتصر المسلمون نصراً عظيماً، وسِيقَ النضر بن الحارث أسيراً ذليلاً، وماذا يفعل الندم اليوم، وقد وصف القرآن حالة أمثاله يوم الحساب فقال سبحانه عز وجل في كتابه الكريم:

بسم الله الرحمٰن الرحيم

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2].

لم يكن محمد ﷺ ولا كان أصحابه حتى هذه اللحظة التي

(١) الإسلام في مكة، د. أحمد شلبي ـ القاهرة ـ.
(٢) سورة الفرقان: الآيتان ٢٧ ـ ٢٩.

انتهى فيها من غزوة بدر منتصراً ـ وقد اصطُحِب مع الأسرى من كفار قريش ـ لم يكن قد وضع نظاماً للأسرى يكون على مقتضاه قتلهم أو فداؤهُم أو استرقاقهم، فقد بدأ عليه الصلاة والسلام بالغنمية التي اغتنمها من كفار قريش، فقد قال الذين جمعوها من المسلمين: نحن جمعناها فهي لنا.

وقال الذين كانوا يطاردون العدو حتى ساعة هزيمته، نحن والله أحقّ بها، فلولانا لما أصبتموها، وقال الذين يحرسون محمداً مخافة أن يرتد إليه الأعداء: ما أنتم ولا هم أحق بها منا، وكان لنا أن نقتل العدو ونأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه، ولكنا خفنا على رسول الله كَرَّة العدو فقمنا دونه. فأمر الرسول ﷺ الناس أن يردّوا كل ما في أيديهم من الغنائم، وأمر بها أن تحمل حتى يرى فيها رأيه أو يقضي الله فيها بقضائه[1].

وقد قسم الرسول ﷺ بين المسلمين على سواء، فجعل للفرس مثل ما للفارس، وجعل الرسول ﷺ للورثة حصة من استشهد ببدر، وجعل حصّةً لمن تخلف بالمدينة فلم يشهد بدراً ما كان قائماً فيها بعلم المسلمين، ومن حرَّضه حين الخروج إلى بدر وتخلَّف لعذر قبله الرسول ﷺ، وخلاصة الأمر فإن الرسول ﷺ قسَّم الفيء والغنيمة بالقسط، وأعطى كل من كان له دور في بدر سواء المقاتل في الميدان أو الخافر الحارس في المدينة، أو من اعتذر لأمر عاقه عن الخروج أيّاً كان هذا الأمر، أو من حرَّض وحضَّ على الخروج للجهاد في سبيل الله.

(١) انظر السيرة لابن هشام، غزوة بدر.

وجاء دور الأسرى فقد تأخر القرار في شأنهم إلا أسيرين منهم، كانا قد اشتد إيذاؤهما للمسلمين في مكة، وكانا لا ينفكان يوصلان للمسلمين من الأذى قدر استطاعتهما.

الأول هو: شيطان قريش النضر بن الحارث، فقد نظر إليه الرسول نظرة ارتعد لها وقد عرف جُرْمَهُ تماماً.

نظر النضر بن الحارث لرجل إلى جواره قائلاً: محمد والله قاتلي! لقد نظر إليَّ بعينين فيهما الموت!!.

فقال له صاحبه: ما هذا والله منك إلا رُعْباً.

تلفت النضر حوله في رعب وخوف فلمح مصعب بن عمير بالقرب منه، وكان أقرب الناس إليه رحماً، فقال له النضر: يا مصعب، يا مصعب كلم صاحبك أن يجعلني كرجل من أصحابه.. فهو والله قاتلي إن لم تفعل.

لم يجامله مصعب في ذلك الوقت فكثيراً ما نصحه الناس، وكثيراً ما هداه عقله إلى أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، فكان أكثر الناس عناداً وغروراً بعلمه الذي تعلمه في بلاد الفرس، وبماله الذي جناه، وجاهه الذي ظن أنه هو الذي صنعهُ.

قال له مصعب: إنك كنت تقول في كتاب الله ـ إنّه قول بشر ـ وبإمكانك أن تنزل قُرْآناً، وكنت تقول في رسول الله ﷺ إنه يروي أساطير الأولين، وقلت إنك تعلمت أساطير أجمل وأفضل ما يروي محمد لكم.. وكنت تُعَذّب أصحابه.

قال النضر لمصعب: لو أسرتْك قريش ما قَتَلْتك أبداً وأنا حيّ.

فقال مصعب: والله إني لا أراك صادقاً، ثم إني لست مثلك، فقد قطع الإسلام العهود.

كان النضر أسيراً للمقداد رضي الله عنه، وكان يطمح أن ينال افتداء أهله إياه بالمال، وكان ماله وفيراً.. لذلك أراد المقداد أن يحسم هذا الجدل الذي دار بينه وبين مصعب بن عمير، ورأى أن النضر بن الحارث يريد أن يتخلص من هذا الموقف وقد امتلأ قلبه كُرْهاً وعداءً للنبي ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم.

عندئذ صاح المقداد قائلًا: النضر بن الحارث أسيري.

فقال النبي ﷺ: «اضرب عنقه».

صدر الأمر النبوي الشريف بالقصاص من عدو الله وعدوه، هذا الماكر الخبيث الذي كان يريد أن يسكت كلمة الحق ويخرسها أمام صوت الباطل، الذي جعله طنيناً كطنين النحل يشكك به في حديث الرسول لأصحابه والقبائل التي دعاها لعبادة الله.

لم تنفعه اليوم أساطيره ولا علمه الزائل، اليوم تنفع التقوى أصحابها. ودعا الرسول ﷺ للمقداد قائلًا: «اللَّهمَّ أغن المقداد من فضلك. لأن المقداد كان يطمع أن ينال من أهل النضر بن الحارث مالاً كثيراً نظير افتداءه له»، لكن دعوة الرسول هذه أغنى من كل مال النضر بن الحارث ـ وتقدم علي بن أبي طالب فضرب عنقه، وقتله جزاءاً له على كفره وعَدائه للنبي ﷺ ولدعوته السامية ـ فسقط أحد أعداء النبي ﷺ لتعلو كلمة الحق.

رأس الكفر
أمية بن خلف

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

هذا الرجل الخبيث آذى النبي ﷺ بمشاركته في مؤامرة قريش عليه. وآذى النبي ﷺ في واحد من أعز أصحابه، وأقربهم إلى قلبه، هذا الصحابي الذي سيكون يوم القيامة من أطول النّاس أعناقاً. عذّبه أُمية بن خلف في مكة كثيراً ذلك أنه في نظره قد ارتكب جُرْماً لمّا دخل في دين محمد ﷺ واسْتجاب لدعوته.

وقد بدأت قصة أُمية بن خلف مع بلال بن رباح الصحابي الجليل ومؤذن الرسول ﷺ حينما دخل رجل إلى أُمية بن خلف، وهو في مجلسه في ناديه في قُرَيش وقال له: أَو ما بلغك الخبر؟.

قال أُمية: وما كان؟.

قال الرجل: لقد شهدتُ عبدكَ بلالاً يختلفُ إلى محمد في قائلة النهار (وقت الظهيرة) أحياناً، وفي ظلام الليل أحياناً أُخرى. وهو

خائف في مشيه، يبدو عليه الحذر والخوف في لفتته، ولقد يخيَّل إليَّ فيما توسمته في وجهه، أنه دخل في دعوة محمد، وانضم فيما تهاوى كثير من قومنا في هذا الدِّين.

قال أمية بن خلف مندهشاً: أحقاً ما تقول؟ وعلى بيِّنة أنت مما تروي؟.

قال الرجل: نعم، ولهذا نَفَضْتُ عليك الخبر، لتهذب هذا العبد وتؤدبه، لتقضي على هذه الفتنة التي توشك أنْ يَنْدَلِعَ لهيبها بين الموالي، وقد أخذتْ سبيلها بين الأشراف.

خرج أُمية بن خلف من مجلسه إلى داره، وقلبه يتحرق من الغيظ وهو يعدُّ لبلال الشرَّ والمكروه.

وجاءَهُ بلالٌ، ووقف بين يديه يضطرب ويَرْتَعِدُ، حينما رأى الشر يلمعُ في عينيه، ونارَ الغيظ تكاد تخرج أُوارَها من بين جنبيه.

قال له أُمية بن خلف: ما هذا الّذي بلغني عنك، وتَرَامى إليَّ من أمرك؟! أحقٌّ ما يقال إنك تجتمع بمحمد تحت جنح الظلام، أو متخفياً بالنهار؟ وإنك آمنت بدعوته، واستجبت إلى أوهامه وضلاله، كافراً باللاَّتِ والعزى خارجاً عن آلهة قُرَيش والعرب؟.

قال بلال: لقد أسلمت، ولا أستطيع أن أكتم إسلامي عليك، فقد جئت محمداً فآمنت برسالته، وصدَّقته فيما يدعو إليه، ولا عَلَيّ بَعْدَ أن حدثتك أن يعلم الناس جميعاً أمري.

قال أمية بن خلف: أو ما علمت أنك مملوك في يميني؟. وعبد رقيق كبقية أملاكي ومتاعي؟ وإني يوم اشتريتك إنما اشتريت جسمك وعقلك، وتملكت روحك وجوارحك، وأنه لا يحق لعقلك أن يعتقد ما يشاء، أو أن يذهب تفكيرك أنّى شاء؟ فما هذا الذي تجاوزُ به حدك وتخرج به على دين سيِّدك؟.

قال بلال: أما إني عبدك وأسيرك، وخادمك ومولاك، فهذا ما لا أنكره عليك، ولو أمرتني بقَطْع وادٍ مُشبع في جوف الظلام لفعلت، أو كلّفتني حمل الأحجار في رمضاء الظهيرة لما شكَوْتُ؟ أما عقلي وفكْري، وعقيدتي وإيماني، فهذا الذي لا يقع تحت سلطانك، ولا يدخل في حوزتك، ولا إمكانك، وما يضيرك من إيماني وإسلامي؟ وما يهمك في أن أملك عقلي وتفكيري، ما دمتُ قائماً على خدمتك، حافظاً لعهدك؟.

قال أُمية: وقد ثارَ ثائرُهُ، واستعر فيه الغضب:

لستَ أيها العبد إلاَّ مملوكاً من مَفْرق رأسك إلى أخْمص قَدمك، وفيما بين ذلك من عقلك وتفكيرك، حتى خطرات نفسك، وخلجات قلبك، وهمسات لسانك، لا تملكَ من كل ذلك شيئاً، أتدري معنى أنك مملوك، ورقيق يُشترى ويُباع؟.

هكذا كان يفهم أُمية بن خلف معنى الرقيق الذي حرَّمه الإسلام، وقال لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى.

«كلكم لآدم وآدم من تراب»..

كـل هذه المعـاني العظيمـة حاربهـا الإسلام، ليقـوض سلطة الظالمين وبطش الإنسان بأخيه الإنسان، لكن أُمية لا يؤمن بهذا الفكر السامي؛ لأنه عقيم الفهم والتفكير. فقد راح يهدد بلالاً ويتوعد ويقول:

ـ سأذيقك من ألوان العذاب، وضروب النكال، حتى استلَّ ما تعتقده من قلبك، وامزق نسيجَ ما تَتَوَهَّم في صدرك.

ويهجم أُميـة بن خلف على بلال المسلم رضـوان الله عليـه، يهجم مغيظاً مهتاجـاً وقد أعماه جهله، وظنَّ أنه قـادر على أن يقهر إرادته، وأن يهزم فكره وعقيدته، فكان في هجمته غليظ الكبد، شديد الوطأة..

شد أُمية الكافر وثاق بلال المؤمن، وقيد رجليه ويديه، ودفع به إلى الصِّبيان في بطحاء مكة، يلعبـون به، ويقذفونه كالنكـرة ليهينوا عقيـدته، ويحـطموا نفســه، ولكن هيهات أن تكـون صغار الحصى الملتهب في بـطحاء مكـة سبباً في هـزيمة إرادتـه ورغبتـه بـالجنـة وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً.

مضى اليـوم الأول، وقد تـرك أميـة بن خلف ـ بـلالاً يتجـرع العذاب ـ وعـاد لينظر انهزام الإيمـان في نفسه، وتـواريه في قلبـه، ويطّلع على ما بلغ منه جهد العذاب ومشقته، ولكن ما عسى أن يبلغ العذاب من نفس أسلمت وجهها لله؟ وما عساه أن يبلغ العذاب من نفس ذاقت حلاوة الإيمان، ونعمة الإسلام وسماحته؟.

جاء الفاسق أُمية بن خلف بنفس شـامتة، وعداء واضح لكل من تبع محمد ﷺ. وقال لبلال: كيف وجدت العذاب يا بلال؟ أخيرٌ لك

ما أنت فيه من عذاب وبلاء أم عودتك إلى اللات والعُزى، وكُفرٌ بما جاء به محمدٌ، وما يزعمه من دين؟.

ولكن أُمية بن خلف لم ولن ينال من إيمان بلال بن رباح هذا العبد الأسود السيد الصادح بالإسلام ـ فكلما صاح به أثناء تعذيبه قائلاً له:

«اذكر الّلات والعُزّى».

أجابـه: أحدٌ. أحدٌ.

فيقول له: قل كما أقول لك.

فيجيبه بلالٌ في تهكم عجيب، وسخرية من جاهليته:

«إن لساني لا يُحْسِنُهُ».

هذا الرجل الّذي ظل عبداً في نظر أُمية بن خلف أصبح سيداً في ظل الإسلام والمسلمين [فقد قال عمر عنه: أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا، يقصد بلال بن رباح؛ لأن أبا بكر هو الذي أعتق بلالاً من براثن هذا الكافـر].

وتـوالت الأيام وتتـابعت، وتتابعت ألـوان العـذاب على بـلال رضي الله عنه، وما يلقى أمية من بلال إلا صبراً واحتساباً، حتى كان أبو بكر يمشي يوماً في بعض شعاب مكة وطرقاتها، فإذا بلال يئنُّ من آلامِهِ، ويتلوى في محنته، وأميةٌ واقفٌ أمامه في كبره وجهله، وظُلمه وعَسْفِهِ، ينظرُ إليه وكأنه قد شُفي من غيظه، فأدركت أبا بكر الرحمةُ، وألحت عليه بإنقاذ هذا المسكين، فقال الصديق رضي الله عنه لأُمية بن خلف:

ـ إلى متى تجعل هذا المسكين هدفاً وغرضاً لعذابك وانتقامك، أتفرح بهذا الأنين الذي تسمعه؟ أي جُرْم اقترفهُ؟ وأي إثم ارتكبهُ؟.

قال أُمية في تكبر وغرور، وعَجب وخُيلَاء:

ـ هذا عبدي، ومِلْكُ يميني، أعَذِّبُهُ كيف أشاء، وأطلقه متى أشاء! وما أوقعه في بلائه، وجَرَّ عليه أسباب شقائه، إلا أنتَ وصاحبك! فإذا كنتُ مشفقاً عليه، ورؤوفاً به، فهذا هو إن كنت تريد شراءهُ وتخليصه مما هو فيه، أما ما دام هذا العبد في مِلْكي فلن أرفع عنه العذاب حتى يعود إلى اللّات والعُزَّى.

عندئذ انتهزها أبو بكر فرصة كي يخلص بلالاً من محنته، ويرفع عنه عذاب سيده، فقال لأُمية: قد اشتريته منك. وليس لك عليه الآن من سبيل، وحين كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يتأبط ذراع بلال منطلقاً به إلى حريته قال له أمية الفاجر الفاسق:

ـ خذه، فواللَّاتِ والعُزَّى، لو أبيت إلا أن تشتريه بأوقية واحدة لبعتكَهُ.

عندئذ ثار أبو بكر لكرامة صاحبه بلال رضي الله عنهما، فقال ردّاً على صفاقة[1] أمية بن خلف الفاجر ـ رد قائلاً:

ـ والله لو أبيتم أنتم إلا مائة أوقية لدفعتها..!!.

وأعتق أبو بكر صاحبه وحرَّره من استعباد رجل كافر كأُمية بن خلف، ومضى بلال بصحبة أبي بكر ليبشرا رسول الله ﷺ بتحرير رجل

(١) أي: التقليل من شأن بلال.

من رجاله من بين يدي عدو من أعدائه من عملية اتسمت بالصبر والجهاد من بلال، وتتسم بالكرم والسماحة من أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فكان تكريم أبي بكر رضي الله عنه في القرآن الكريم الذي جاء فيه قول الله عزَّ وجل:

﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ۝١٧ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ۝١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ۝١٩ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٠ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾[١].

ويقول عمر رضي الله عنه عن بلال وأبي بكر: «أبو بكر سيدنا، وأعتق سيدنا». وتمضي الأيام ويهاجر بلال إلى المدينة عزيزاً كريماً، إذ يختاره الرسول مؤذناً له، فيكون يوم القيامة أطول الناس أعناقاً.

أما أُمية بن خلف فيبقى في مكة ذليلاً يتجرع الغيظ مع أخبار محمد ﷺ، التي تأتي بازدياد اتباعه كل يوم والتفافهم حوله، وتأييدهم له وطاعتهم له وحفظهم القرآن الكريم، حتى جاء يوم بدر العظيم، ودار قتال عظيم بين المسلمين الذين يدافعون عن دينهم ورسولهم، وبين الكفار الذين أرادوا نصب الأصنام في مكة ما كانت مكة على وجه الأرض.

وكان أُمية بن خلف في مقدمة جيش الكفار يملأ نفسه الغرور والكبر، ويظن أنها نزهة صيد أو رحلة في الصحراء يروّح بها عن نفسه، ويفعل بمحمد ﷺ الأفاعيل، إلا أنه صُدِمَ في ميدان القتال ولم يصدق أن جدار الكفر الهائل قد انهار وتحطمت أصنامه في هذا اليوم على رماح وسيوف أبطال الإسلام، ففكر في النجاة بنفسه، والهرب

(١) سورة الليل: الآية ١٤.

من هول الهزيمة فلمح عبدالرحمٰن بن عوف، فاحتمى به قائلاً: هل لك في أن تأسِرني؟ فأنا خير لك من هذه الأدراع التي معك! فطرح الأدراع من يده، وأخذ أمية بن خلف بيده ويَد ابنه ومشى بهما.

وسار عبدالرحمٰن بن عوف بين أُمية وبين ابنه، فقال له أُمية: من منكم المُعْلَمُ بريش نعامةٍ في صدرِهِ؟.

قال: ذاك حمزة بن عبدالمطلب.

قال أمية: ذاك الذي فعل بنا الأفاعيل!.

ورآه بلال وهو يقود أُمية وابنه فصرخ قائلاً: رأس الكفر أُمية بن خلف! لا نجوتُ إن نجا، فقال عبدالرحمٰن بن عوف: يا بلال؛ إنَّه أسيري.

قال بلال: لا نجوتُ إن نجا.

قال عبدالرحمٰن: يا بلال. إنه أسيري.

قال بلال: لا نجوت إن نجا.

قال عبدالرحمٰن: أتسمع يا ابن السَّوْداء.

قال بلال: لا نجوت إن نجا.

ثم صرخ بلال بأعلى صوته معلناً هجومه على عدو الله ونبيه، وليبين لهم نصر الله لعباده المستضعفين وقال:

يا أنصار الله، يا أنصار الله، رأس الكفر أمية بن خلف، لا نجوت إن نجا!.

وهجم بلال وأصحابه على أُمية رأس الكفر، واليوم لن ينفعه كبرياؤه لن تكون رمضاء مكة كما كانت، ولن تنفعه اليوم اللّات والعُزّى، وتعاملت السيوف والرماح مع أُمية رأس الكفر، وعبدالرحمٰن يَذُبُّ عنه؛ لأنه أسيره. حتى سقط أمية وابنه صريعا، وصاح أُمية صيحة شديدة، لم يتنفس بعدها وعبدالرحمٰن بن عوف يقول لأمية: انج بنفسك ولا نجاء! فوالله ما أغني عنك شيئاً.

وانتصر سيد المسلمين على عدو النبي وعدو أصحابه، وكان النصر في النهاية للذين أسلموا وجههم لله، فلم يمنعهم تعذيب الكفار ولا حرارة رمضاء مكة.. يرحم الله بلالاً، الذي خلّص المسلمين من ألدِّ أعدائهم على وجه الأرض.

أبو لهب وأم جميل

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ﴾[1].

مضت ثلاث سنوات على بعثة محمد ﷺ، إذ كانت الدعوة فيهم سرّاً لا يعلمها إلاّ الله ورسوله وصالح المؤمنين ممن انضموا إلى دعوة محمد ﷺ.

بعد هذه السنوات الثلاث، جاء أمر الله عزّ وجل لرسوله بأن يُظهر ما خفي عن عامة الناس وعرّفه الخاصة من أتباع محمد، ونزلت الآية الكريمة:

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝٢١٤ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢١٥ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

---

(١) سورة المسد.
(٢) سورة الشعراء: الآيات ٢١٤، ٢١٥، ٢١٦.

ثم نزل قوله تعالى مؤكداً انطلاق الرسالة وترك المشركين وشأنهم، فقال عز وجل:

﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾(١).

عند ذلك دعا محمد ﷺ عشيرته إلى طعام في بيته، وحاول أن يحدثهم داعياً إيّاهم إلى دين الله، موحدين وطائعين ولكن عمه أبا لهب قطع حديثه وقاطعه، ودعا القوم للانصراف وتركه عليه السلام، لكن النبي ﷺ لم ييأس ودعاهم لليوم الثاني على طعام أيضاً، فلمّا طَعِموا عنده قال لَهُمْ: «ما أعلم إنساناً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني ربي أن أدعوكم إليه، فأيكم يؤازرني على هذا الأمر؟» فأعرضوا عنه...

وهم القوم بتركه، لكن عليّاً نهض واقفاً، وكان ما يزال صبيّاً وقال: أنا يا رسول الله عونك، أنا حرب على من حاربت.

فابتسم الحضور من بني هاشم، بل وضحك بعضهم بصوت عالٍ وجعل نظرهم ينتقل من أبي طالب إلى ابنه علي، ثم انصرفوا مستهزئين..

وانتقل النبي ﷺ بعد ذلك بدعوته من عشيرته الأقربين إلى أهل مكة جميعاً، فصعد جبل الصفا ونادى بأعلى صوته: «يا معشر قريش.. يا معشر قريش».

قالت قريش: محمد على الصفا يهتف، وأقبلوا عليه يسألونه،

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩٤.

ما بك يا محمد؟ قال عليه الصلاة والسلام: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقون؟».

قالوا: نعم! أنت عندنا غير متّهم وما جربنا عليك كذِباً قطُّ.

قال: «فإنّي نذيرٌ لكم بين يدي عذابٌ شديد، يا بني عبدالمطلب، يا بني عبد مناف، يا بني زُهْرة، يا بني تميم، يا بني مخزوم، يا بني أسد، إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين، وإني لا أملك لكم من الدُّنيا منفعة ولا من الآخرةِ نصيباً إلا أن تقولوا: لا إله إلا الله».

فنهض أبو لهب، وكان رجُلاً بديناً سريع الغضب، فصاح:

تبّاً لك[1] سائر هذا اليوم، ألِهذا جمعتنا؟.

كانت هذه هي البداية، عندها نزل القرآن على رسول الله بسورة المسد تردّ على تعنّت هذا الرجل وطغيانه فقال عزَّ وجل:

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾.

بحثت أم جميل زوج أبي لهب عن شيء تكيد به لمحمد ووجدت ضالتها، فقد كان بين البيت المحمدي وبيت أبي لهب مشروع مصاهرة لم يكتمل بعد، نتحدث عنه من البداية:

ـ تزوجت كبرى بنات النبي واسمها زينب من ابن خالتها

(١) تباً لك: أي خسرت وهلكت.

العاص بن الربيع، وبقيت أختاها رقية وأم كلثوم في انتظار دورهما في الزواج، أما فاطمة فقد كانت صغيرة.

وجاءت المناسبة عندما زار محمد عدد من شيوخ ورجالات من بني عبدالمطلب وعلى رأسهم أبو طالب الذي بادر محمداً قائلاً:

ـ إنك يا ابن أخي قد زوَّجت زينب أبا العاص بن الربيع، وإنه لنعم الصهر، غير أن بني عمك يرون لهم عليك مثل ما لابن أُخت خديجة، وليسوا دونه شرفاً ونسباً..

أجاب محمد: «صدقت يا عم..».

واستطرد أبو طالب يقول: «وقد جئناك نخطب ابنتينا رقية وأُم كلثوم، وما أراك تضن بهما على ابني عمك..».

قال محمد ﷺ: «معاذ القرابة والرحم، ولكن هلاّ أمهلتني يا عمِّ حتى أتحدث في هذا إلى ابنتيَّ؟.. ولكن من يكون الخاطبان؟».

إنهما عتبة وعتيبة، أبناء أبي لهب «عبد العزى بن عبدالمطلب بن هاشم» ترددت خديجة في هذا الزواج لخوفها من جبروت «أم جميل بنت حرب» ذات السمت السوقي والطبع الجامح الحاد..

ولكن تم الأمر ـ واختلف الرواة في زواجهما أمْ كانت خطوبة فقط، فقد جاء في الاستيعاب ما نصه: «كانت رقية تحت عتبة بن أبي لهب وكانت أختها أُم كلثوم تحت عتيبة بن أبي لهب».

والبعض قال إنهما لم يبنيا ببنات النبي ﷺ، ولكن ما اتفق عليه أنه كان هناك اتفاق على إتمام هذا الزواج.

هذه قصة مشروع المصاهرة ـ فما إن ظهرت الدعوة وجهر بها النبي عند جبل الصفا وفي أركان مكة حتى استشاطت «أم جميل بنت حرب» غضباً وقالت: لا يظلني وبنتي محمد سقف واحد، وما زالت بزوجها «أبي لهب» حتى أثارت حفيظته على رقية وأُم كلثوم، فقال الرجل لولديه: رأسي من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتي محمد..[1].

وقد ظنت ـ أُم جميل ـ أنها تكيد للنبي ﷺ من خلال فعلتها هذه، ولم تكتف بهذا، بل عندما وصل إلى علمها ما نزل فيها من القرآن في سورة المسد، جُن جنونها واشتعلت غيرتها، وانطلقت يملأ نفسها الحقد الأعمى إلى حيث يجلس رسول الله ﷺ في الكعبة ومعه أبو بكر الصديق يجلس إلى جواره، وأمسكت في يدها حجراً تريد أن تضرب به النبي ﷺ، ولما وقفت أمام النبي ﷺ أخذ الله بصرها بعيداً عنه فأصبحت لا ترى أمامها إلا أبا بكر الصديق، فقالت: يا أبا بكر، أين صاحبك؟ فقد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إني لشاعرة ـ ثم أنشدت تقول: مُذَمَّماً عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا[2].

(١) جاء ذلك من الروض الأنف ٦٨/٣: أن عتبة وعتيبة ـ طلّقا بنات النبي بعزم أبيهما وأمهما عليهما حينما نزلت سورة المسد فأما عتيبة فدعا عليه النبي ﷺ أن يسلط عليه كلباً من كلابه، فافترسه أسد، وأما عتبة فقد أسلم يوم الفتح..

(٢) كانت قريش تسمي الرسول مُذَمَّماً أي عكس محمد؛ أبينا: رفضنا دينه؛ قلينا: هجرنا.

وانصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله، أما تراها رأتك.

فقال عليه الصلاة والسلام: «ما رأتني، لقد أخذ الله ببصرها عني»[(1)].

وقد هجاها شعراء الإسلام ومن بينهم شاعر أنصاري هو الأحوص الدوسي فقال:

ما ذاتُ حَبْلٍ يراه الناس كلُّهم وسط الجحيم ولا يخفى على أحدِ
كُلُّ الحبال، حبال النَّاس، شَعر وحبلها وسْط أهل النار من مسد[(2)]

ويسجل التاريخ عداءً سافراً من أبي لهب للنبي ﷺ عندما ضربت قريش حصاراً على المسلمين في شعاب مكة، فكانوا ينزلون من الشعاب والجبال إلى سوق مكة لشراء طعامهم، فيقف أبو لهب عدو الله مخاطباً التجار: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن ألّا خسارة عليكم.

فيزيد التجار على أتباع محمد ﷺ قيمة السلعة أضعافاً، حتى يرجع المسلم إلى أطفاله وهم يبكون من الجوع، وليس في يديه شيء من الطعام يطعهم به، ثم يجيء التجار إلى أبي لهب فيُربِحهم فيما اشتروا وباعوا من الطعام واللباس.. حتى جهد المسلمون وتعبوا[(3)].

وظل الرجل على عدائه للنبي ﷺ، فخسر دنياه وآخرته وبُشِّرت أمُّ جميل مع زوجها بنار ذات لهب.

---

(1) انظر السيرة ١/٣٨٢.
(2) انظر نسب قريش ص ٨٩.
(3) الطبري ٢/٢٢٥، السيرة ١/٣٨٢ وما بعدها.

الجد بن قيس

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ لبني سَلمة وكان الجد بن قيس منهم: «من سيدكم يا بني سلمة؟».

قالوا: الجد بن قيس غير أنه بخيل جبان!!.

قال عليه السلام: «وأي داء أكبر من البخل.. بل سيدكم الأبيض الفتى الجَعْدُ بِشْرُ بنُ البَرَاءِ بن مَعْرور»[2].

كانت البداية في يوم عسرة ـ عسرة في المال ـ وعسرة في الجو الذي كان حاراً شديد الحرارة، هذه العسرة هي التي وضعت رجلاً من هذا النوع الضعيف الإرادة تحت مجهر واضح واختبار جميل أعطى كل ذي حق حقه، فالمجاهدون في سبيل الله كشفوا عن صلابة

(١) سورة التوبة: الآية ٤٩.
(٢) أسباب النزول للنيسابوري ـ تحقيق درب الجميل ـ دار الكتاب العربي.

إرادتهم وقوة إيمانهم، أما الضعفاء والمترددون فقد خسروا كثيراً، وسقطوا في الفتنة والعياذ بالله.

من هؤلاء الجدُّ بن قيس سيد بني سلمة في المدينة المنورة ـ تُرى ما هي قصة هذا الرجل؟ وما الذي دار بينه وبين رسول الله يوم غزوة تبوك[1] أو غزوة العُسْرَة؟.

تبدأ القصة عندما علم النبي ﷺ أن نصارى العرب قد اجتمعوا مع جند الروم لمحاربته، ووصلت مقدمتهم إلى أرض الشام، فأمر أصحابه بالتهيؤ لغزوهم، وذلك في زمن عُسْرةٍ من الناس، وشدَّةٍ من الحرّ، وجَدْبٍ في البلاد، وحين طابت الثمارُ، فالنَّاس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون البعد عنها.

وكان النبي ﷺ قلَّما يخرج في غزوة كنى عنها ـ أي تكلم بكلام وأراد غيره ـ كي يحقق المفاجأة مع عدوه.. فيخبر أنه يريد غير الوجهة التي يقصد إليها، إلا هذه الغزوة، غزوة تبوك فإنه بيَّنها للناس صراحة، وذلك لأسباب عديدة وهي:

* بُعْدُ المسافة ومشقة السفر إلى تبوك.

* شدة الحر، لأنها جاءت في صيف شديد يسعى فيه الإنسان إلى ظل ظليل.

* كثرة عدد عدوه الذي خرج لقتاله، وذلك ليعد النَّاس عدتهم على أحسن وجه.

---

(١) كانت غزوة تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة، وتبوك: موضع من أدنى أرض الشام.

لذلك فقد أمر الرسول ﷺ الناس بالتجهز والاستعداد للقتال، وأخبرهم أنه يريد غزو الروم، فتجهز النّاس رغم ما داخل نفوسهم من كراهية الخروج في هذا الوقت، لما عرفوا من كثرة الروم العددية وقوتهم الشديدة، وتثاقل بعض الناس من المنافقين، وعرف الرسول ﷺ أمر هؤلاء المنافقين بما وهبه الله من قوة ملاحظة وفراسة وفطنة، لا تخدعه في موقف كهذا، هذا بالإضافة إلى وحي الله إليه بما من نفوس هؤلاء الضعفاء..

وفي زحام هذا كله، نظر الرسول ﷺ إلى الجّد بن قيس وقال له: «يا جدّ، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟» وبنو الأصفر هم الروم، أي: هل لك في قتالهم والجهاد في سبيل الله.

فقال الجد بخبثٍ ودهاءٍ معهودٍ من أمثاله المنافقين:

يا رسول الله، أو تأذن لي ولا تفتني! فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عُجْباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألّا أصبر! فأعرض عنه الرسول، وقال له: «قد أذنت لك».

وتبع قوم من المنافقين هذا المنوال السيء والطريق الخاسر، فقال بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحر، استخفافاً في الجهاد، وشكّا في الحق، وضعفاً في الإيمان، وإرجافاً بالرسول وتخويفاً له، ففضح الله ما بيتوا، وأنزل على نبيه عليه السلام ما بيّن نواياهم.

ففي الجد بن قيس نزل قوله تعالى:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي ۚ أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾. (التوبة: ٤٩).

ونزل في المنافقين قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝٨١ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ (التوبة: ٨٢).

وخرج الرسول ﷺ لقتال عدوه في جو عُسرة وحال عَسِرَة، وخرج معه المؤمنون المجاهدون بعضهم بكى حزناً؛ لأنه لم يجد دابة تحمله شأنه شأن إخوانه الضعفاء الغير قادرين على السير، وبعضهم مشى وحده في الطريق ليلحق برسول الله ﷺ، وتسابق المسلمون للجهاد في سبيل الله، وجدّ المسلمون في السير بعدما تخلف المنافقون ومعهم الجدّ بن قيس، حتى انتهوا إلى تبوك فلم يلق رسول الله حرباً، وصالح عليه الصلاة والسلام أهل تبوك وقفل راجعاً، ونزلت الآية في الجد بن قيس فقال عليه الصلاة والسلام لبني سلمة وهم قوم الجد بن قيس: «من سيدكم يا بني سلمة».

فقالوا: الجد بن قيس غير أنه بخيل جبان!!.

قال عليه السلام: «وأي داء أكبر من البخل، بل سيدكم الأبيض الفتى الجَعْد بِشْر بن البَرَاءَ بن مَعْرور فأنشد حسان بن ثابت مادحاً سيد بني سلمة الجديد بشر بن البراء».

وقال رسول الله والحق لاحق ... بمن قال منا من تعدون سيدا
قلنا له جد بن قيس على الذي ... ببخله فينا وإن كان أنكدا
فقال: وأي الداء أدوى من الذي ... رميتم به حبراً وعالى بها يدا
وسوَّد بشر بن البراء بجوده ... وحق لبشر ذي النداء أن يسوَّدا

هذه صورة لمنافق كان أشد خطراً على المسلمين ممن جهروا بكفرهم وكلاهما في النار ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾

الرَّجّال بن عنفوة

هذا الرجل قال عنه الطبري في تاريخه[1]:

«كان أعظم فتنةً على بني حَنيفةَ من مسيلمة الكذاب»!! تُرى لماذا وصف ابن جرير هذا الرجل المنافق بهذه الصفة؟.

لقد أفصح مسيلمة عن عدائه وكذبه فنال جزاءه، وقُتِلَ على يد أبطال المسلمين ومنهم وَحْشيّ بن حرب.

أمَّا «الرجَّال بن عُنفُوَةَ» فقد غيَّر جِلْدَه مرات ومرات ـ فلقد هاجر إلى النبي ﷺ، وقرأ القرآن كمسلم وانضم جماعة المسلمين، وفُقِّه في الدين، حتى أصبح محل ثقة الرسول ﷺ، فهو من القُرَّاء الفقهاء الذين يتحملون مسؤولية نشر الدعوة، ورأى فيه الرسول ﷺ داعيةً يمكن أن يُكلَّف بهذا الأمر في مِصْر من أمصار الإسلام.

فما إن ظهر مسيلمة الكذاب، وشاع أمر دعوته الكاذبة، ووصلت رسالته الوقحة إلى رسول الله ﷺ، والذي قال فيها: من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله! سلامٌ عليك وبعد:

فإني قد أُشرِكتُ في الأمر معك، وإن نصف الأرض.. إلى آخر الرسالة.

---

(١) الطبري ٣/٢٨٢ طبعة دار سويدان.

بعث الرسول ﷺ بعد أن رد على رسالة الكذاب، بعث الرجّال بن عُنفُوَة معلماً يعلم الإسلام لأهل اليمامة، ويُبْطِل كَذِب مسيلمة وسفاهته، ويشدد من أمر المسلمين، ويعاونهم على ما هم فيه من محنة ويوقف هذه الفتنة التي أوقدها هذا الكذّاب المدعو «مسيلمة بن حبيب» ولكنه خان أمانته، شتان ما بينه وبين مصعب بن عمير أول سفير في الإسلام عندما كُلِّفَ بهذه المهمة العظيمة، فكان خير سفير لخير رسول، فقد نزل في دار أسعد بن زرارة وعَلَّمَ الأنصار القرآن فاجتمعوا حوله وأحبوا دعوته، وقدّروا أمانته.

أمّا «الرجّال بن عنفوة» فكان رجُلاً خائناً مرتدّاً، فكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة نفسه ـ فما إن وصل إلى اليمامة وسمع دعوة مسيلمة بن حبيب الكذاب ورأى الناس يستمعون له حتى شهد لمسيلمة شهادة الزور والكذب، وشاركهُ في كذبه وخيانته عندما قال أمام الناس جميعاً بلا حياء ولا أدب: إنني سمعت محمداً ﷺ يقول: «إن مسيلمة بن حبيب قد أُشرِكَ معي».

فما إن سمع بنو حنيفة كلام الرُجال حتى صدقوا مسيلمة واستجابوا له وأمروه بمكاتبة النبي ﷺ في هذا الأمر، بل وقال بعضهم لمسيلمة وقد شاعت الفتنة في صفوفهم: إن هو لم يتصل سنعينك عليه [يقصدون محمد ﷺ].

وأصبح «الرَّجال بن عنفوة» مؤيداً لمسيلمة الكذاب، ومصدقاً لكذبه الفاحش، فلا يقول مسيلمة شيئاً إلا تابعه عليه، وقال عنه: إنه يقول حقاً!!.

لذلك فقد أصبح «الرجَّال بن عُنْفُوَة» الذي اشتهر باسم «نهار» أكبر مضلل للناس في اليمامة، واستعان مسيلمة بحديثه ومعرفته بأخبار الرسول ﷺ في المدينة ليضم أكبر عدد من الناس إلى صفوفه، فكان يؤذن له، ويجلس خلفه في كل مكان يملي عليه بالكذب، ويدعوهُ لتقليد الرسول في تعامله مع الناس، لكن الله كان يخزيهما، ويكشف كذبهما، وادّعاءهما الكاذب. فمثلاً عندما جاءت امرأة من بني حنيفة لمسيلمة تُكنّى أم الهيثم فقالت:

ـ إن نخلنا لسُحُق وإن آبارنا لجُزُر، فادع الله لمائنا ونخلنا، كما دعا محمد لأهل هَزْمان(١).

فنظر مسيلمة إلى الرجَّال بن عنفوة وقال له: ما تقول هذه؟.

فقال الرجَّال: إن أهل هزمان أتوا محمداً ﷺ فشكوا بُعْد مائهم، وكانت آبارهم جُزراً ـ ونخلهم أنَّها سُحُق، فدعا لهم فجاشت آبارهم، وانحنت كُل نخلة قد انتهت حتى وضعت جرانها لانتهائها، فحكت به الأرض حتى أنشبت عروقاً ثم قُطِعت من دون ذلك، فعادت فسيلاً كلما ينمى صاعداً.

هكذا روى الرجَّال لمسيلمة الكذاب هذه الحادثة.. ليستغلها في التّشبه بالرسول ﷺ فقال مسيلمة: وكيف صنع بالآبار؟.

قال الرجَّال: دعا بدلو فدعا لهم فيه، ثم تمضمض بفمه منه،

---

(١) سُحُق: الطويل من النخل، آبارنا خزر: أي قليلة الماء ـ انظر تاريخ الطبري ٣/٢٨٤.

ثم مجّه فيه فانطلقوا به حتى فرّغوه في تلك الآبار، ثم سَقَوْه نخلاً ففعل النبي ما حدَّثتك.

فدعا مسيلمة بدلو وقلّد الرسول كما ذكر له الرجَّال ـ فغارت المياه من الآبار وفسد نخلهم، واستبان ذلك كثيراً بعد مقتل مسيلمة.

ومرّة أُخرى كان الرجَّال بن عنفوة يجلس بجوار مسيلمة يؤيد كذبه ونفاقه في القول فجاء رجل إلى مسيلمة فقال له:

ـ يا مسيلمة، ادع الله لأرضي فإنَّها سَبِخَةٌ، كما دعا محمد ﷺ لسُلمى على أرضه.

فقال مسيلمة للرَّجَّال وقد اشتهر عنده باسم نهار: ما يقول يا نهار؟.

فقال نهار: قدم عليه[1] سلمى، وكانت أرضه سبخة فدعا له، وأعطاه دلواً من ماء، ومجّ له فيه، فأفرغه في بئره، ثم روى، فطابت وعذبت.

ففعل مسيلمة للرجل مثل ذلك الذي حكاه له الرجَّال عن الرسول ﷺ، فأخذ الرجل الدلو من مسيلمة وفعل كما فعل سلمى، إذا بأرضه تغرق بالماء عن آخرها، ولم تجف المياه من على ترابها، وفسدت ثمرها التي أثمرتها ولم يستطع مسيلمة أن يفعل شيئاً!! فكانت السماء بالمرصاد لهذا الكاذب مسيلمة.

ولنعد إلى البداية لنستمع إلى هذه القصة من أبي هريرة رضي الله عنه.

---

(١) يقصد أنه قدم على الرسول ﷺ.

قال أبو هريرة:

قد كان أبو بكر بعث إلى الرجّال فأتاه فأوصاه بوصية ثم أرسله إلى أهل اليمامة، وهو يرى أنَّه على الصدق حين أجابه.

قال أبو هريرة: جلست مع النبي ﷺ في رهط ومعنا الرجَّال بن عُنفْوة. فقال: إن فيكم لرجلاً ضرسه في النار أعظم من أحدُ.

فهلك القوم وبقيت أنا والرجَّال، فكنت متخوفاً لها حتى خرج الرجَّال بن عنفوة مع مُسيلمة، فشهد له بالنبوة، فكانت فتنة الرجَّال أعظم من فتنة اليمامة التي افتتن بها أهلها وفتنهم مسيلمة الكذاب[1].

هكذا كانت البدايات تنذر بأن الخطر قادم في الأفق، من هذا الرجل الذي جلس في مسجد الرسول وسمع القرآن رطباً جميلاً يتردد في أرجاء المدينة المنورة وفُقّهَ في الدين، فظنوه أنه داعية للإسلام، وسفير صدق لأهل اليمامة لكنه خيّب كل الظنون وأصبح أكثر من كذاب أهل اليمامة خطراً على أنفسهم ودينهم.

وفي يوم عقرباء أو يوم اليمامة كان البطل زيد بن الخطاب للرّجال بالمرصاد فما إن تذامر المسلمون وحض بعضهم بعضاً على التفاني في القتال، حتى صرخ زيد بن الخطاب قائلاً:

«أيها الناس، عَضُوا على أضراسكم واضربوا عدوَّكم، وامضوا قُدُماً، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأُكلِّمه بحجتي».

ثم خرج زيد بن الخطاب إلى القتال: فلقي أول ما لقي

---

(١) انظر تاريخ الطبري أحداث السنة الحادية عشرة ٣/٢٨٧، ط. دار سويدان.

الرجّال، فكانت فرصة سانحة لينتقم أتباع الحق من المنافقين وأتباع الباطل فيزهق الحق روح الباطل إن الباطل كان زهوقاً، وجلجلت السيوف، وبرقت في السماء فتعارك الرجلان، زيد بن الخطاب رضي الله عنه، والرجّال بن عنفوة لعنه الله ولم يلبث الرجّال إلا قليلاً حتى شجَّ رأسه سيف زيد بن الخطاب، فكان سيف العدل الذي أقام الحد على الكافر، ولم يلبث الرجّال إلا قليلاً، حتى نَفَذَ رمح الحق بيد زيد بن الخطاب في أحشائه وسقط رأس الفساد على الأرض، وانهار الكذب وزهق الباطل بسقوط هذا اللعين، وعلت راية الإسلام خفاقة.

مسيلمة الكذاب

كان العام العاشر هو عام الوفود التي قَدِمت لتبايع رسول الله ﷺ، وفي هذا العام قَدِم على رسول الله ﷺ وفد بني حنيفة وفيهم مسيلمة بن حبيب الكذاب، وقد نزلوا في دار ابنة الحارث وهي امرأة من الأنصار.

وقد أسلم بنو حنيفة أمام رسول الله ﷺ بعد أن تركوا مسيلمة في رحالهم خارج المدينة، وذكروا للرسول ﷺ مكان مسيلمة فقالوا: يا رسول الله، إنا قد خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا وركابنا يحفظها لنا. فأمر له رسول الله بمثل ما أمر لأهله وقال عليه السلام: «أما أنه ليس بشركم مكاناً، يحفظ صنيعة أصحابه»(1). وذلك الذي قصده رسول الله ﷺ.

ثم انصرف الوفد عائداً إلى اليمامة، فلما وصلوا إلى بلادهم ووصل خبر حجة الوداع ومرض الرسول ﷺ، ظهر المرتدون وعلى رأسهم هذا الكذاب، الذي اتخذ كذبه هذا سلاحاً يصل به إلى مكانة دنيوية وسلطان زائف، ولم يكن عن مبدأ أو رسالة.

لقد ارتد مسيلمة عدو الله وتنبأ لقومه وكذب عليهم، وبدأ يسرد

(1) تاريخ الطبري ٣/١٣٨، ط. دار السويدان ـ بيروت ـ. وسيرة ابن هشام طبعة التراث مصر ٣/٤٢٥.

لهم ما يمليه عليه خياله الأرعن، وادعاؤه الكذاب، ووهمه الحقير، فقال للناس من أهل اليمامة:

إني قد أُشركت في الأمر معه ـ يقصد رسول الله ﷺ.

وقال لمن معه في الوفد: ألم يقل لكم رسول الله ﷺ حيث ذكرتموني: «أما إنه ليس بشرّكم مكاناً».

ما قال ذلك إلا لما كان يعلم أني قد أُشركت معه.

وأخذ خياله يملي عليه سجعاً، فيقول للناس فيما يقول متشبهاً بألفاظ القرآن، واهماً الناس أن هذا هو القرآن فيقول:

«لقد أنعم الله على الحُبلى، أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشي».

ومنع عن قومه الصلاة، وأحل لهم الخمر والزنا، والغريب أنه شهد لرسول الله ﷺ أنه نبي، فتبعه بنو حنيفة على ذلك.

وما إن اجتمع الناس عليه حتى ظهر له ما يزعجه ويؤرق كذبه، لقد ظهرت له امرأة عربية ادَّعت النبوة وتمثلت الكذب شأنها شأنه أيضاً.

وهذه المرأة اسمها سَجَاح ادَّعت أيضاً أنها نبيّة وأن الوحي ينزل عليها، وتبعها بنو تميم وهم قبيلتها[1]. ثم سارت لقتال مسيلمة، وكانت جموعها أكثر من جموعه، فلما علم مسيلمة بمسيرها إليه لحربه وقتاله استشار أصحابه قائلاً: ما الرأي؟.

---

(١) انظر الفخري في الأداب السلطانية والدول الإسلامية ـ لابن طباطبا ـ طبعة دار صادر ـ بيروت ـ ص ٧٤.

قالوا: أن تسلم الأمر إليها فلا طاقة لنا بها وبمن معها.

قال مسيلمة: دعوني أنظر في أمري.

كان مسيلمة ماكراً داهية، وعَرِف ضعف المرأة وطبيعتها كأُنثى فأرسل إليها يقول: ينبغي أن نجتمع أنا وأنت في موضع، ونتدارس ما نزل إلينا من الوحي، فمن كان على الحق تبعه الآخر..!!.

هكذا أملى عليه كذبه ومكره وخداعه أن يقول فمن كان على الحق تبعه الآخر!! فوافقت على الاجتماع معه، فأمر مسيلمة أن تنشأ قبة أو استراحة، وطلب من جنده أن يكثروا فيها من روائح وعطور الحبشة المعروفة برائحتها الجميلة، وقال: إن المرأة لتعجبها هذه الرائحة الزكية وعندما أتت طلبها للزواج فقالت: إن مثلي لا يجري أمرُها هكذا، ولكن إذا خرجتُ اعترفتُ لك بالحق واخطبني إلى قومي فإنّهم يزوجونك، ثم أقود بني تميم معك.

هكذا استمال مسيلمة الكذاب سجاح الكاذبة، بعد أن زين لهما الشيطان سوء عملهما، وخرجا من مجلسهما على اتفاق بينهما.

فلما خرجت سَجَاحَ قالت: إنه قرأ علي ما نزل عليه من الوحي فوجدته حقاً!! وقد سلمت الأمر إليه.

وذهب مسيلمة الكذاب إلى قومها فخطبها فوافقوا، وجعل مهرها

---

(١) انظر الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٧٥.

كما جاء في بعض الروايات التاريخية ـ إعفاء بنو تميم من صلاة العصر[1]!!.

هكذا ملك الكذاب الفاجر أن يعفي الناس من صلاة فرض ويدع الآخر..

وقد ذكر الناس أن بني تميم ظلوا لا يصلون العصر، ويقولون هذا مهر كريمتنا. ولكن الإسلام والمسلمين سيكون لهم شأن عظيم مع هؤلاء المفسدين في الأرض، الذين استباحوا الدين وجعلوه هزواً..

وبدأ مسليمة يتصرف بفجور أكبر وكُفر يفوق الوصف، إذ كتب إلى الرسول ﷺ كتاباً قال فيه:

ـ من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله! سلامٌ عليك. أما بعد: فإني قد أُشرِكتُ في الأمْرِ معك، وإنّ لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنَّ قريشاً قومٌ يَعْتَدُون.

وحمل الكتاب إلى النبي ﷺ رسولان من مسيلمة، فقال لهما النبي ﷺ حين قرأ كتاب مُسيلمة:

ـ «فما تقولان أنتما؟».

قالا: نقول مثل ما قال!!.

فقال: «أما والله لولا أنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَل لضربت أعناقكما».

ثم كتب عليه السلام كتاباً إلى مسيلمة الكذاب يرد على كفره

(١) انظر الفخري ص ٧٥.

وكذبه لعله يرجع إلى صوابه، ويعصي الشيطان الذي استولى عليه.

«بسم الله الرحمٰن الرحيم:

من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب: سلام على من اتَّبعَ الهدى أما بعد:

فإنّ الأرضَ لله يُورِثُها من يشاءُ من عباده والعاقبة للمتقين»[1].

وقد اتخذ مسيلمة الكذاب نهجاً عجيباً، فقد صدَّقه بنو حنيفة واستجابوا له، وجعل له مؤذناً منهم يقال له عبدالله بن النَّواحة، وجعل له مقيماً للصلاة هو حُجَيْر بن عُمَير، ويشهد له، وكان مسيلمة إذا دنا حُجَيْر من الشهادة، قال: صَرِّح حُجَيْر، فيرفع صوته، ويبالغ لكي يصدق نفسه، ولتضليل الذين أسلموا ودخلوا في دين الله أفواجاً، فعظم وقاره في أنفسهم وصدّقوه.

ولنا الآن أن نسمع هذه القصة التي يسخر منها أي عقل مهما كان أداؤه وعطاؤه.. فقد بنى مسيلمة الكذاب حَرَماً باليمامة، وأمر الناس أن يحجوا إليه شأنه شأن الكعبة المشرفة، وكان مكان هذا الحرم قُرى الأحاليف وهم ـ في التفاخر لبني أُسيد، وكانت دراهم باليمامة فصار مكان دارهم الحرم الذي شيّده مسيلمة الكذاب ـ واتخذوا الحرم هذا مكاناً يؤويهم ـ وكان بني أسيد هؤلاء أو الأحاليف [الحارث بن جروة، وسيحان..] كانوا لصوصاً، إذا كثرت الثمار في اليمامة أغاروا عليها وقطفوها ـ ثم يعودون فيحتمون بحرم مسيلمة

---

(١) انظر تاريخ الطبري ١٤٦/٣، ١٤٧، ط. دار سويدان.

الكذاب، وهو محرم دخوله على النّاس والمطاردة فيه، فكلما سرقوا احتموا به، ولما شكا منهم أهل اليمامة فحكّموا مسيلمة الكذاب، فقال لهم: انتظروا الذي يأتي من السماء فيكم وفيهم - وانتظر قليلاً ثم جعل يردد قائلاً: «والليل الأطحم[1]، والذئب الأدلم[2]، والجذع الأذلم[3] ما انتهكت أُسيد من محرم».

فاجتمع أصحاب الأموال، ولكن لم يجبهم مسيلمة، وترك أتباعه يغيرون على أموالهم وزراعاتهم، فجاءوا إليه يشكون مرة أخرى، فقال لهم: انتظروا الذي يأتي من السماء - ثم انتظر قليلاً وجعل يردد:

«والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أُسيد من رطب ولا يابس».

فقالوا له: لقد قطعوا النخيل وأخذوا رطبها وتمرها، فقال لهم: اذهبوا وارجعوا فلا حق لكم.

ومن قراءته لهم: «إن بني تميم قوم طهر لقاح[4]، لا مكروه عليهم ولا أتاوة، نجاورهم ما حيينا بإحسان، نمنعهم من كل إنسان، فإذا متنا فأمرهم إلى الرحمٰن».

وكان الكذّاب يقول:

---

(١) الأطحم: الأسود.
(٢) الأدلم: الأسود الطويل.
(٣) الجذع الأذلم: الدّهر. انظر الطبري ٣/٢٨٣.
(٤) لقاح: لم يدينوا للملوك ولم يصبهم سباء.

«والشاة ألوانها، وأعجبُها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنــه لعجب مَحْض، وقد حــرِّم المــذق، فمــا لكم لا تمجعون!».

وكان الكذَّاب يقول:

«يا ضفدع ابنة ضفدع، نُقِّي ما تنقين، أعلاك في الماء وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدرين».

ويسخر الساخر عندما يقرأ هذا الهراء، ويقول: ما هو الجديد في هذه الأهازيج، وما المضمون الذي أضافه مسيلمة بألفاظه التي ابتغى بها الكذب على رسول الله ﷺ.

ولننظر مرة أخرى في أقوال الكذاب يقول: «والمبذِّرات زَرْعاً، والحاصدات حصداً والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة وسمناً، لقد فضلتم على أهل الوبر وما سبقكم أهل المدَر، ريفكم فامنعوه، والمعتز فآووه والباغي فناوئوه».

وفي مجلس ادَّعى مسيلمة أنه مجلس نبي جاءته امرأة من بني حنيفة تُكنَّى بأُم الهيثم فقالت لمسيلمة: أن نخلنا لسحق أي: طويل، وآبارنا مجدبة لا ماء فيها فادع الله لمائنا ولنخلنا، كما دعا محمد لأهل هَزْمان».

وكان يجلس إلى جوار مسيلمة الكذاب في هذه الأثناء رَجُلٌ مرتدٌّ يقال له رجَّال بن عنفوة وشهرته «نهارُ» عنده علم بسيرة محمد ﷺ.

فقال له مسيلمة: ما تقول هذه يا نَهارُ؟.

فقال نَهارُ: إنّ أهل هَزْمان أتوْا محمداً ﷺ فشكوا بعد مياههم، وكانت آبارهم مجدبة، ونخلهم لا تثمر، فدعا لهم فجاشت آبارهم، وانْحَنَت كلّ نخلة قد انتهت، حتى وضعت جرانها لانتهائها، وكثرت ثمارها وخيراتها.

قال مسيلمة الكذاب: وكيف صنع محمد بالآبار؟.

قال نَهارُ: دعا بدلو به ماء فتوضأ فيه ـ ثم تمضمض بفمه منه ثم خلط ماء الوضوء هذا بما فيه من ماء، فانطلقوا به حتى أتوا الآبار ففرغوه بها، ثم سقوا نخلهم، عندئذ دعا مسيلمة بدلوٍ وفعل مثل ما فعل النبي ﷺ، فلما أفرغوه في آبارهم غارت مياهها وبَعُدَتْ، وخوى نخلهم وأصبح لا يثمر ولا يخرج فيه طلع أبداً.

وظل نَهارُ رغم كل هذا ينصح مسيلمة الكذاب بالتشبه بالنبي ﷺ، فقال له يوماً: بَرِّك على مولودي بني حنيفة ـ أمرر يدك على أولادهم. فقال له مسيلمة: وما التبريك؟.

قال نهارٌ: كان أهلُ الحجاز إذا ولد فيهم المولود أتوْا به محمداً ﷺ فحنَّكه ومسح رأسه.

قلدَّ مسيلمة كل هذا فلم يؤت بصبي ليحنكه ويمسح رأسه، إلا أصابه الصلع وأصبح لسانه عثر الكلام ينطق السين ثاءً. وكل هذا ظهر بعد وفاة مسيلمة وقتله[1].

---

(١) انظر الطبري ٣/٢٨٥.

وقال له نهار أيضاً: تَتَبَّعْ حيطان بني حنيفة، كما كان محمد ﷺ يصنع فصلٍّ فيها مثله.

عندئذ دخل مسيلمة حائطاً من حوائط اليمامة، فتوضأ.

فقال نهار لصاحب البستان: خذ وضوء الرحمٰن!! يقصد وضوء مسيلمة واسق به حائط بستانك حتى يروى ويبتل، كما صنع رجل من بني المهرية حين قدِم على النبي ﷺ فأخذ وضُوءَهُ فنقله معه إلى أرضه وأفرغه في بئره، ثم نزع وسقى، وكانت تعطش فرويت وأثمرت ثِماراً كثيرة.

فأخذ الرجل صاحب البستان وضوء مسيلمة إلى أرضه في اليمامة، وفعل كما فعل صاحب النبي ﷺ فجفت ماء بئره، وجفت أرضه وتوقفت عن الإثمار والخضرة، ولم تعد صالحة للزراعة.

وقد كان مسيلمة غنياً بحكم وجوده في أرض خصبة بالإضافة إلى ما تجمع حوله من الناس، لذلك فقد نافقه ضعاف النفوس طالبي عَرَض الدنيا من مال أو حمية أو جاه، وهذا طلحة النَّمرِيّ أحد هؤلاء الذين طمعوا في دنيا هذا الكذاب، لقد جاء طلحة النَّمري إلى اليمامة فقال: أين مسيلمة؟.

قالوا: مه رسول الله!.

فقال لهم: لا، حتى أراه.

فلما جاء إلى مسيلمة الكذاب قال له: أنت مسيلمة؟.

قال مسيلمة الكذاب: نعم، أنا مسيلمة.

قال طلحة النَّمري: من يأتيك؟.

قال الكذاب: رحمٰن.

قال طلحة: أفي نور أو في ظُلْمة؟.

فقال مسيلمة الكذاب: في ظُلْمة!!.

فقال طلحة النَّمري: أشهد أنك كذاب وأن محمداً صادق، ولكن كذاب ربيعة أحبُّ إلينا من صادق مُضَر[1] وانضم إلى جيشه، وظل طلحة النَّمري على نفاقه مع مسيلمة الكذاب مرتدّاً عن دينه يبتغي عَرَضاً زائلاً، حتى قُتل يوم اليمامة في عقرباء.

إلى هذا الحد وصل نفاق هؤلاء فحق عليهم قول الله عزَّ وجل:

بسم الله الرحمٰن الرحيم:

﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[2].

اشتد أمر مسيلمة والتف حوله قومٌ كثيرون من أهل اليمامة، حتى بلغوا أربعين ألف مقاتل كلهم من بني حنيفة من اليمامة.

ولما مات رسول الله ﷺ، وبعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه السرايا إلى المرتدين أرسل عكْرِمَة بن أبي جهل في عسكرٍ إلى مسيلمة الكذاب، وأتْبَعه شُرَحْبيل بن حَسَنَة.

---

(١) الطبري ٣/٢٨٦، طبعة دار سويدان ـ بيروت.

(٢) سورة النساء: الآية ١٤٢.

مضى عكرمة مسرعاً يرغب في نيل شرف القضاء على مسيلمة الكذاب ودعوته، ولم ينتظر صاحبه شُرَحبيل بن حسنة، وكان عكرمة بطلًا عظيماً، وفارساً مغواراً يحسب له العدو ألف حساب، وقد اجتمع في لوائه أبطال من صحابة النبي ﷺ، مهاجرين وأنصار ومن أهل البوادي الكثير، وجمع من أهل القُرى.

ولما دار القتال بين عكْرِمَة وأبطاله وبين أربعين ألفاً تبعوا مسيلمة الكذاب لم يثبت عكرمة لقوتهم إذ أنَّ العدد الذي يعمل تحت قيادته لا يتجاوز الثلاثة الآف مقاتل، فهزمهم بنو حنيفة، وتراجع عكرمة، ولما عَلِم شرحبيل بن حسنة بهزيمتهم، آثر أن يتروى بعض الشيء فعسكر بالطريق وأقام به، بينما كتب عكرمة لأبي بكر رضي الله عنهما بالذي أصابه وأصاب جنده، فغضب أبو بكر، وكتب إليه: «يا ابْنَ أُمِّ عكْرِمَة، لا ترجِعَنَّ فَتُوهِن النَّاسَ، امض إلى حذيفة وعرفجة، فقاتل أهل عُمان ومَهْرَة، ثم تسير أنت وجندك حتى تلقى المهاجر بن أُمية باليمن وحَضْرَمَوْت».

أبو بكر الصديق

وكتب إلى شرحبيل بن حسنة يأمُرُهُ بالمقام حتى يأتيه أمره.

كان خالد بن الوليد بمثابة القيادة العسكرية الأساسية في قيادات الجيش الإسلامي في المدينة، ومن هذه الأيام التي هُزم فيها عكرمة بن أبي جهل عاد خالد لتوه من البطاح، فكلَّفه أبو بكر الصديق بمهمة اليمامة، وجمع له قوات كافية فجعل على الأنصار ثابت بن قيس والبراء بن عازب رضي الله عنهما، وعلى المهاجرين أبا حُذَيفة، وزيد بن الخطاب، وعلى كل قبيلة رجلاً.

وأكمل أبو بكر الصديق إجراءات هذه العملية الضخمة بكتاب أرسله إلى شرحبيل بن حسنة المنتظر في الطريق مع جنوده جاء فيه، أما بعد:

«فإذا قدم عليك خالد، ثم فرغتم إن شاء الله، فالْحقَ بقضاعة، حتى تكون أنت وعمرو بن العاص على من أَبى منهم وخالف».

خرج خالد في جمع مؤمن من المهاجرين والأنصار، وأهل القرى والبوادي يُسمع طنينهم كطنين النحل وهم يرتلون القرآن في الطرقات، فقد رطبت ألسنتهم بذكر الله وقراءة كتابه الكريم، وكان أكثر هؤلاء من القراء الذين حفظوا القرآن في صدورهم من لسان رسول الله ﷺ.

خرج خالد في جُنْدِهِ حتى أتى اليمامة، حيث كان بنو حنيفة مستعدين هناك في جَمْعِهم الكثيف.

ولما بلغ مسيلمة الكذّاب دُنُوُّ خالد ضرب عسكره بعقرباء، وهي منزل من منازل اليمامة واستنفر الناس فجعلوا يخرجون إليه وينتظمون في جيشه الضخم.

وفي الوقت الذي كانت جيوش خالد تتدفق إلى أرض اليمن واليمامة، وتبلغ أبناؤها مسيلمة الكذاب، إذ خرج رجل من بني حنيفة يسمى «مُجَّاعةُ بن مرارة» في جماعة من بني حنيفة، يطلبون ثأراً لهم في بني عامر، وثأراً آخر في بني تميم، وقد استعجل مُجَّاعةُ بن مرارة ورفاقه بعد أن خاف على ثأره أن يفوته إذا انشغل بقتال المسلمين، وأدرك مُجَّاعة ثأره وانتهى منه ثم عاد في أصحابه، ولما بلغوا ثنية

اليمامة أخذهم التعب فاستراحوا وناموا، ولما وصل جنود خالد، وجدوهم نياماً وحبال خيولهم في أيديهم تحت خدودهم، ومن شدة التعب لم يشعروا بقرب جيش خالد منهم، فأيقظوهم من نومهم وقالوا لهم: من أنتم؟.

فردوا عليهم بغلظة قائلين: هذا مُجَّاعة، وهذه حنيفة ثم قالوا في غلظة، وأنتم فلا حيّاكم الله!!.

أمسك بهم المسلمون وأوثقوهم وأقاموا إلى أن جاءهم خالد بن الوليد فأتوه بهم، فقال لهم: متى سمعتم بنا؟.

قالوا: ما شعرنا بكم، إنما خرجنا لثأر لنا فيمن حولنا من بني عامر وتميم. فسألهم خالد: ما تقولون في الإسلام؟.

فقالوا: منّا نبي ومنكم نبي!! أي: أنهم أشركوا مسيلمة مع الرسول ﷺ برسالتهم.

فعرضهم خالد على السيف فقتلهم وأبقى على مجّاعة عنده كالرهينة، وأوثقه في الحديد، ثم دفعه إلى أم تميم زوجته وقال لها: استوصي به خيراً، ثم مضى حتى نزل اليمامة.

تقدم خالد والمسلمون حتى نزلوا على كَثيبٍ يُشْرِفُ على اليمامة، فضرب به عسكره، وراية المهاجرين مع سالم مولى أبي حُذيفة، وراية الأنصار مع ثابت بن قَيس، والعرب على راياتها، ومُجّاعة بن مرارة مُقَيَّدٌ في الخيمة مع أم تميم.

التقى الفريقان فريق الحق والصدق وجيش الكذب والباطل،

واقتتلا قتالاً تشيب له الرؤوس، حتى وصل بنو حنيفة إلى مُجّاعة في خيمة أم تميم، ودخل أُناس منهم الخيمة، وفيها مُجّاعة تحرسُهُ أُم تميم زوج خالد، فحمل عليها رجل منهم السيف، فصرخ مُجّاعة قائلاً: مَهْ، أنا لها جَار! فنِعْمَتِ الحرّة! عليكم بالرجال، فمزقوا الخيمة بالسيوف[1].

حلّت الهزيمة بالمسلمين لكنهم عادوا يحضون بعضهم بعضاً على استمرار القتال وضرب قوى الشر والفساد، فقال ثابت بن قيس حامل راية الأنصار رضوان الله عليهم أجمعين:

بئسما عودتم أنفسكم يا معشر المسلمين، اللَّهُمّ إني أبرأُ إليك مما يعبد هؤلاء- يعني أهل اليمامة- وأبرأ إليك مما يصنَعُ هؤلاء- يعني: المسلمين.

ثم أخذ يقاتل بسيفه. وجعل الصحابة يتواصَوْن بينهم، ويقولون: «يا أصحاب سورة البقرة، بَطُلَ السِّحْر اليوم!».

وحفر ثابت بن قيس رضوان الله عليه لقدميه في الأرض، وهو حامل اللواء، بعدما تحنط وتكفن!! ولم يزل ثابتاً حتى لقي ربه شهيداً دفاعاً عن دينه وعقيدته.

وفي سياق هذه الروح الفدائية العظيمة الّتي أصرت على القضاء على الدجل والكذب نادى بطل آخر من أبطال المسلمين يوم اليمامة هو سالم مولى أبي حذيفة حامل راية المهاجرين قائلاً: «يا أهل القرآن، زيِّنوا القرآن بالفعال». وحمل فيهم حتى أبعدهم.

وقال بطل آخر هو زيد بن الخطاب: أيها الناس، عضُّوا على

---

(١) انظر أحداث اليمامة تاريخ الطبري جـ٣ السنة الحادية عشرة للهجرة.

أضْـرَاسكم، واضربـوا عدوَّكم، وامضُـوا قُدُمـاً، والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله، أو ألقى الله فأُكلّمه بحجتي.

ثم خرج زيد للقتال، وقاتل حتى استشهد بعـد أن أبلى بلاءً حسنـاً وظلت الحـرب سِجَـالاً، مـرّة على المسلمين ومـرّةً على الكافرين.

عندئذ أراد خالد أن يحسم القتال الشرس لصالحه فقال:

«امتازوا لنعلم بلاءَ كلِّ حيّ، ولنعلم من أين نؤْتَى!».

فامتاز أهل القرى والبوادي، وامتازت القبائل من أهل الباديـة والحاضرة، فقـاتلوا جميعاً، وثبت مسيلمـة، عندئـذ عرف خـالد بن الوليد أنها لا تهدأ إلا بقتل مسيلمة، بَرَزَ أمام الصف ودعا للمبارزة وقال: أنا ابن الوليد، ثم نادى بشعار المسلمين في هذه الأيام فصرخ قائلاً: يا محمَّداه! يا محمداه. فكان كلما خرج إليه رجل منهم قتله.

وأقبـل الفرسـان الذين أحـاطوا بمسيلمـة لحمايتـه أقبلوا على خالد بن الوليد لمبارزته واحداً تلو الآخر، وكلما خرج منهم واحد قتله خالد بسيفه المسلول، وكثر القتل في أتباع مُسَيلمة ـ وشعر مسيلمة بالخزي والعار، وفكر في الخروج للقتال ولمبارزة خالد بن الوليد لكنه جَبُنَ وخاف، وفيما هو يفكر إذا بخالد بن الـوليد يشن هجـوماً مـع أصحابه على مسيلمة ومن حوله من الرجال.

وبدأ المسلمون في مـطاردة مسيلمة وجنـوده، فلما رأى أحـد رجال مسيلمة واسمه محكم بن الطفيل فرار بني حنيفة قال: يا بني

حنيفة، الحديقة.. الحديقة وكانت الحديقة على مقربةٍ منهم، وكانت الحديقة لمسيلمة الكذاب وقد سماها حديقة الرحمٰن، وفر القوم إلى الحديقة التي كانت فسيحة الأرجاء منيعة الجدران، كأنها الحِصن، وقد فروا إليها وتحصنوا بها من هزيمتهم، وسقوط الألوف منهم قتلى، ووقف المحكّم بن طفيل برجاله يحمي ظهورهم أثناء الفرار، ولكن عبدالرحمٰن بن أبي بكر الصديق عاجله برمية سهم في نحره أردته قتيلاً، وأحاط المسلمون بالحديقة، واقتحموها، فقاتلوا قتالاً شديداً.

وذهب بعض رجال مسيلمة يقولون له: أين ما كنت تعدنا، وبينما هم في حديثهم هذا إذ بموجة من موجات جيش المسلمين تقتحم عليهم الزحام وسط بحر من الدماء، وصرخ صارخ فيهم:

إن مسيلمة قد قُتِلَ، إن العبد الأسود قتل مسيلمة، والمقصود بالعبد الأسود هو: وَحْشِيّ بن حرب، وكان بطلاً من أبطال المسلمين يوم اليمامة، فقد عاجله بضربة رمح قوية وأكمل عليه أبطال المسلمين بالسيف، فنادت امرأة من القصر قائلة: واأمير الوضاءة، قتله العبد الأسود.

وسقط عدو كاذب من أعداء النبي ﷺ مضرجاً بدمائه، خسر دينه ودنياه، لقد كان من شياطين الإنس الذين أرادوا بالإسلام فتنة وشرّاً، وبمقتله عاد بنو حنيفة إلى رشدهم ودفعوا زكاتهم، واستقر الإسلام في نفوسهم، فاطمأنت وسعدت.

سجاح بنت الحارث التميمية

بسم الله الرحمٰن الرحيم

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴾[1].

عجيب أمر سجاح هذه، كانت متكلمة، فيها فصاحة إبليس إن كان فصيحاً في الكفر، ولعلك تعجب من فصاحتها أمام الناس عندما تتحدث عن نفسها ذات يوم فتقول:

إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان مُلكٌ فالملكُ ملككم[2].

كانت سجاح بنت الحارث بن سويد بن عقفان، ومعها بنو أبيها تعيش بين بني تغلب (وهم أخوالها) ـ كانت راسخة في النصرانية، تدين بها ديناً وتدعو لها، ولكن ما ينبىء القارىء عن ضعف إيمانها

---

(١) سورة الكهف: الآيات ١٠٤ ـ ١٠٦.
(٢) انظر تاريخ الطبري جـ٣، ط. سويدان ص ٢٦٩.

واهتزاز عقيدتها أنها لم تثبت على ما آمنت به وإن كانت في النصرانية، فعلى الرغم من أنها تعلمت من بني تغلب علم النصرانية، ونشأت بينهم تلك النشأة، على الرغم من ذلك إلا أنها بعد وفاة النبي ﷺ ادَّعت النبوة وتنبأت في هؤلاء القوم ـ وجعلت تستميلهم بأقوالها منها ما أسلفنا ذكره وهو قولها: إنما أنا امرأة من بني يربوع، وإن كان ملك فالملك ملككم. وقد استجاب لها بعضهم وترك النصرانية، ومالأها جماعة من رؤساء القبائل على رأسهم: الهذيل بن عمران في بني تغلب، ومالك بن نويرة، وعقبة بن هلال في قبيلة النَّمر، وزياد أبو عديّ الإيادي شيخ قبيلة أياد، والسَّليل بن قيس في شيبان[1].

وقد انتهزت فرصة اختلاف القبائل وتناحرها وجمعت جموعها، ومرت تقاتل بعض القبائل وتوادع بعضها. وكان لانشغال الولاة عنها وتناحرهم أثر في نفس الشاعر، فقال معبراً عما آل إليه حال الرجال من بني تميم:

ألم يأتيك والأنباءُ تَسْري ... بما لاقت سَرَاة بني تميم
تَداعى من سراتهمُ رِجَالٌ ... وكانوا في الذَّوائب والصميم
وألْجوهم وكان لهم جنابٌ ... إلى أحياء خاليةٍ وخِيمِ[2]

وقد تهاوى أمامها الكثير من القبائل من هؤلاء بنو مالك الذين ما إن أرسلت إلى شيخهم وكيع ـ حتى وادعها و هنها، فاجتمعت مع وكيع وغيره على قتال النَّاس.

---

(١) انظر تاريخ الطبري ٣/٢٢٩ وما بعدها.
(٢) المصدر السابق.

كان جمعهما باطلاً قائماً على إيذاء النَّاس، والاستحواذ على الأمصار والقبائل، واتخذت نبوّتها الكاذبة ستاراً مما دعا الشاعر العربي أصَمَّ التميمي إلى رفض هذا الجمع الباطل بقوله:

أَتَتْنا أختُ تغلب فاستهدّت جلائب من سَرَاةِ بني أبينا
وأرْسَتْ دعوةً فينا سفاها وكانت من عمائر آخرينا
فما كُنَّا لنَرْذِيهم ذِبالاً وما كانت لتُسْلم إذ أُتِينا
ألا سَفِهتْ حلومُكُمُ وضلَّتْ عَشِيَّةَ تحشدون لها ثُبِينا

ثم فرغت من هذه وتلك، وتوجهت في جنود إلى الجزيرة تريد المدينة، حتى بلغت منطقة يقال لها النباج، فأغار عليها أوس بن خزيمة ومن تبعه من بني عمرو، فأسر الهذيل بن عمران التغلبي وهو حليف سجاح وخالها. ولما وجدت القتال قد استعرّ بينها وبين أوس بن خزيمة، واستطاع أوس أن ياسر ويقتل الكثير، أوقفوا القتال، وتعاهدوا بينهم ألا تمرّ بجيوشها من أرضهم لقاء ردّ الأسرى من الطرفين..

وتراجعت سجاح بعد هذه المعركة عن الجزيرة، ثم عقدت اجتماعاً لقادتها فقالوا: بمَ تأمرينا؟!.

فقالت: أُريد اليمامة، وهي أرض مسيلمة الكذاب لعنه الله.

فقالوا: إنّ شوكة أهل اليمامة شديدة، وقد عَظُمَ أمر مسيلمة، وأصبح قوياً التف حوله الأتباع وجيّش الجيوش.

فقالت في سجع كانت تستحوذ به على قلوبهم:

«عليكم باليمامة، ودفُّوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صَرّامة، لا يلحقكم بعدها ملامة»[1].

واتجهت سجاح بنت الحارث التميمية إلى بني حنيفة لمهاجمة مسيلمة الكذاب. بلغ خروجها هذا مسيلمة الكذاب فهابها، وخاف إن هو شُغل بها أن يغلبه أعداؤه،مثل ثمامة بن حجر أو شُرَحْبيل بن حَسَنَة القادم من المدينة لتأديبه، ومنع الفتنة التي أقام النَّاس عليها في بلاده ليرتدوا عن دين محمد ويتوهموا أنه نبي، وهو كاذب لعين.

فأرسل مسيلمة لها الهدايا، وأرسل إليها أيضاً يستأمنها على نفسه، حتى يأتيها ويجلس إليها للتفاوض، فأمرت جنودها بإرخاء السلاح وأذنت له وآمنته، فجاءها وافداً في أربعين من بني حنيفة، ولما وقف أمامها قال:

لنا نصف الأرض، وكان لقريش نصفها لو عدلَتْ، وقد ردَّ الله عليك النصف الذي ردت قريش، فحياك به (أي: خذيه) وكان لقريش من قبل لو قبلته.

عندئذ قالت في عُنْفٍ وعصبية: لا يرد النصف من مال، فاحمل النصف إلى خيل تراها كالسُّهف (أي: كثيرة)[2].

فقال مسيلمة وقد مكر ليستميلها إليه، ويزعم أنه صاحب علم ودراية وإيمان ومعرفة، ظنّاً منه أن السجع والنصوص تجعله نبياً!!.

---

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٧٢.
(٢) انظر تاريخ الطبري ٣/٢٧٢.

قال الكذاب: سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا زال أمره في كل ما سرّ نفسه يجتمع.

رآكم ربُّكم فحيّاكم، ومن وحشة خلّاكم، ويوم دينه أنجاكم، فأحياكم علينا من صلوات معشر أبرار، لا أشقياء ولا فُجّار، يقومون الليل ويصومون النهار، لربكم الكُبار، رب الغيوم والأمطار(١).

واستطرد الكذاب يستميل المرأة، ويلعب عليها من أجل استمالتها وقد خَبُرَ أن في المرأة ضعفاً، يستهوي ذكاء الرجال، فقال الكذاب مسيلمة لسجاح بنت الحارث:

لما رأيت وجوههم حَسُنَت، وأبشارهم صفت، وأيديهم طَفُلت(٢)، قلت لهم: لا النساء تأتون، ولا الخمر تشربون، ولكنكم معشر أبرار، تصومون يوماً، وتكلفون يوماً، فسبحان الله! إذا جاءت الحياة كيف تحيَوْن، وإلى ملك السماء ترقَوْن! فلو أنها حبة خردلة (أي: صغيرة لا قيمة لها) لقام عليها شهيد يعلم ما في الصدور، ولأكثر الناس فيها الثُبور(٣).

كان اجتماع سجاح التميمية ومعها الكذاب مسيلمة في وجود قوم لها، فلما قالت له: انزل لنتحدث، فقال لها: أبعدي عني أصحابك!!.

فأبعدت سجاح جنودها وأصحابها، ثم قال مسيلمة: عطروا غرفتي هذه وجمروها لعلها تميل إلي وتعجب بي.

(١) تاريخ الطبري ٣/٢٧٢ السنة ١١.
(٢) طَفُلت: أي صارت طفلة ناعمة.
(٣) المصدر السابق.

ضربوا لها العطر في كـل مكان تحت قبة جلسوا فيها، فلما انفرد مسيلمة بها، بادرها قائلاً وقد اعتراه اللؤم والخبث والفجور:

ما أوحي إليك؟

قالت : وهل يبتدئن النساء! ولكن أنت قل ما أُوحي إليك؟.

قال الكذاب: ألم تر إلى ربك كيف فعل بالحُبْلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق [1] وحشى، من بين ذكر وأنثى، وأموات وأحياء، ثم إلى ربهم يكون المنتهى.

بُهِرت سجاح بأهازيج الكذاب فقالت: وماذا أيضاً؟!.

قال الكذاب: أُوحي إليّ: أن الله خلق النساء أفراجاً، وجعل الرجال لهنّ أزواجاً؛ فنولج فيهن قُعْساً إيلاجاً ثم نخرجها إذا نشـاء إخراجاً، فينتجن لنا سِخَالاً إنتاجاً.

قـالت سجاح وهي الأنثى شـأنها شـأن بنات جنسهـا الـلاّتي يستملن أحياناً بلين القول ومعسول الكـلام.. قالت سجـاح: أشهد أنك نبيّ قال الكذاب وقد ملك زمامها وسيطر على مشاعرها بحديثه المعسول وقوله المصقول: هل لكِ أن أتزوجك فآكل بقومي وقومك العرب [2].

قالت سجاح على الفور: نعم. وتزوجها الكذاب في مجلسهما هذا فلما فرغ منها قالت: إن مثلي لا يجري أمـرها هكـذا فيكون

(١) الصفاق: هو الجلد الأسفل الذي تحت الجلد الذي عليه شعر. انظر هامش الطبري ٣/٢٧٣.
(٢) الطبري ٣/٢٧٣.

وصمة عار على قومي، ولكني مسلِّمة النبوة إليك، فاخطبني إلى أوليائي يزوجوك، ثم أقود تميماً معك.

فخرج الكذاب وخرجت معه، واجتمع الناس من بني حنيفة وتميم، فقالت لهم سجاح: إنه قرأ عليّ ما أُنزل عليه فوجدته حقاً فاتبعته[1]. فقال أهلها: وهل أصدقك شيئاً ـ أي سألوها عن المهر ـ قالت: لا، قالوا: فارجعي إليه، فقبيح بمثلك أن ترجع بغير صداق!! فرجعت. فلما رآها مسيلمة ارتاب منها وأوجس خيفة وأغلق الحصن ثم ناداها قائلاً: مالك؟.

قالت: أصدقني صداقاً.

قال: من مؤذنك؟.

قال: شَبَث بن ربعي الرّيَاحي.

قال الكذاب: عليَّ به، فجاء، فقال: ناد في أصحابك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضع عنكم صلاتين ممّا أتاكم به محمد: صلاة العشاء الأخرة وصلاة الفجر!!!.

وكان معها من أصحابها شاعر هو عطارد بن حاجب فقال:

أَمْسَتْ نَبِيَّتُنا أنْثى نُطيفُ بها ... وأصْبَحَتْ أنبياء النَّاس ذُكْرانا

وقال شاعر آخر يعير مُضر بسَجاح، ويذكر ربيعة:

أَتوكُمْ بدِينٍ قائِمٍ وأُتيتُمُ ... بِمُنْتَسِخِ الآيات في مُصْحَفٍ طَبِّ[2]

---

(١) انظر الأغاني ١٨/١٦٦

(٢) المصدر السابق.

وظلت سجاح تحت مسيلمة الكذاب، حتى فتح خالد بن الوليد اليمامة، وسقط الكذاب تحت أقدام المسلمين بعد أن قتله البراء بن مالك رضوان الله عليه بعد حمل المسلمين على الحديقة التي تحصن بها مسيلمة، وسقط قناع الباطل، وعرف النَّاس أن الحق قد جاء وأن الباطل قد زهق، وصرع تحت أقدام رجال محمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين.

وفي عهد معاوية بن أبي سفيان جاءت سجاح من الجزيرة إلى الكوفة، ويقول الطبري: إنها تابت وحسن إسلامها[1].

ويقول الرافعي رحمه الله في إعجاز القرآن:

ثم أسلمت هذه المرأة بعد وحَسُن إسلامها، وما كانت نبوتها إلا زفافاً على مسيلمة، وما كانت هي إلا امرأة.

ويكثر الأعداء لكن عداءهم ظلام، والنبي ودعوته نور لن يُطفأ أبداً، مهما كان بطش الأعداء، ومهما علا مكرهم واشتد فسادهم.

وها هو الإسلام يضرب في الأرض سريعاً ، رغم كثرة أعدائه وأعداء النبي ﷺ.

(١) الأغاني ٣/٢٧٥.

طليحة الأسدي

بسم الله الرحمٰن الرحيم

من أبي بكر الصديق خليفة رسول الله ﷺ إلى مَنْ بَلَغه كِتابي هذا من عامَّة وخاصة، أقام على إسلامه أو رجع عنه.. سلام على من اتبع الهدى..

وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه، بعد أن أَقَرَّ بالإسلام وعمل به، اغتراراً بالله وجهالة بأمْرِهِ، وإجابة للشيطان.. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾.

وإني بعثت إليكم فلاناً في جيش من المهاجرين والأنصار، وأمرته ألّا يقاتل أحداً ولا يقتله، حتى يدعوه إلى داعية الله، فمن استجاب له وأقرّ وكفّ وعمل صالحاً قَبِل منه، وأعانَهُ عليه، ومن أبى أمرتُ أن يقاتله على ذلك، ثم لا يبقى على أحد منهم قدر عليه..

وقد أمرتُ رُسولي أن يقرأ كتابي في كلِّ مجمع لكم، والداعية الأذان..

أبو بكر الصديق
خليفة رسول الله

هذه مقتطفات من رسالة أبي بكر التي كتبها للمرتدين بصورة عامة، وذلك عندما اطمأنَّ أبو بكر إلى عودة أسامة بن زيد من غزوته.

وعقد أبو بكر اللواء لخالد بن الوليد، وأمره بِطُلَيْحَةَ الأسَدِي المرتد، وكان طليحة الأسدي هذا قد ارتدّ في حياة رسول الله ﷺ وادعى النبوة، فوجه النبي ﷺ الصحابي الجليل ضرار بن الأزور إلى عمّالة على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل مُرتدّ، فخرج هؤلاء المسلمون مع ضرار، ونزلوا بموضع قرب مكة يقال له: «واردات» ونزل طليحة ومن معه بموضع آخر قرب مكة يقال له «سميراء» فما زال المسلمون في نماء وكثرة، والمشركون في نقصان. وضَعُف أمْرُ طُلَيحة، حتى لم يبق إلا أخذهُ وهزيمته، فضربه ضِرَارٌ بالسيف فلم يصنع فيه شيئاً، فظهر بين النّاس أن السلاح لا يعمل فيه، وكَثُر جمعه.

ومات النبي ﷺ وهم على ذلك، فكان طليحة يقول: إن جبريل يأتيني. وأخذ يسجع بالأكاذيب، ويبث هراءه على الناس، فكان يأمرهم بترك السجود في الصلاة ويقول: إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم وتقبيح أدباركم شيئاً، اذكروا الله واعبدوه قياماً!!، فتبعه من العرب كثير، بعضهم عن غفلة، وبعضهم على عصبية، ولذلك كَثُرَ أتباعُهُ من أسد، وأتباعهم من طي وغطفان، وقام عيينه بن حصن الفزاري يقول: لأن نتبع نبيّاً من الحليفين: أسد وطيء، أَحَبّ إلينا أن نتبع نبيّاً من قريش.

فلما كان يوم القَصّة، وهزمت غَطَفان، وكانوا قَتَلوا المسلمين غَدْراً، خافوا على أنفسهم، فذهبوا إلى البزاخة، حيث انضمّوا مع

إخـوانهم إلى طليحة، فلمـا أحسَّ طليحة بمقـدم خالـد أرسل إلى حلفائه من جَديلة والغوث من طيىء يأمرهم باللحاق به، فتعجل إليه بعضهم، وأمروا قومهم باللحاق بهم.

وكان أبو بكر رضي الله عنه قد بعث عدي بن حاتم الطائي إلى قومه «طيىء» قبل مسير خالد، وقال له: أُدركهم وخذِّلهم عن طُليحة، فذهب إلى الغوث وأخذ يدعوهم إلى الجماعة، فقالوا: لا نبايع أبا بكر أبداً، فقال: أتاكم طليحة ليبين حريمكم، ولتكْنُنَّه بالفحل الأكبر، فشأنكـم به.

فقالوا له: فاستقبل الجيش وعطِّله عنا، حتى نستخرج من لحق بالبزاخـة منا، فإنا إن خالفنا طليحة وهم في يديه قتلهم أو ارْتَهنهم.

واستقبل عدي بن حاتم الطائي خالد بن الوليد فقال له: انتظر معي ثلاثة أيام يجتمع لك خمسمائة مقاتل تضرب بهم عدوّك، وذلك خير من أن تُعجلهم إلى النار، وتتشاغل بهم، فامتثل خالد للنصيحة.

فعاد عدي إليهم، وقد أرسلوا إخوانهم إليهم، فأتوهم من بُزاخة كالمدد لهم، وعاد عديّ بإسلامهم إلى خالد.

وسار خالد بالنـاس، حتى إذا دنا من القـوم بعث عُكاشـة بن مِحْصَن، وثابت بن أقرم ـ كاستطلاع للجيش، فلقيا في الطريق «حبالاً أخا طليحة» فقتلاه، فلما بلغ مقتله طُليحة خرج مـع أخيـه الآخـر ينظران ويسألان، فأما سلمة فلم يُمهل ثابتاً حين رآه أن قَتَلَه، وثبت عكاشة لطُلَيحة، فلما رأى طليحة أن أخاه فرغ من ثابت، استعان به على عكاشة فقتلاه ثم رجعا..

وأقبل خالد بالناس حتى مَرُّوا بثابت بن أقرم قتيلاً، فلم يفطنوا له حتى وطئته الخيل والإبل بأقدامها، فكثر ذلك على المسلمين، ثم نظروا فإذا هم بعكاشة بن مِحصن صريعاً، فجزع لذلك مع المسلمين وقال:

سيّدان من سادات المسلمين، وفارسان من فرسانهم!! ورأى خالد ما أصاب أصحابه من الجزع، فآثر ألاّ يواجه بهم عدوَّهم حتى تطمئن نفوسهم، فسأل عديًا: ما الرأي؟.

فقال: الرأي أنْ تسير إليّ فتقيم عندي أياماً فيْ طيّء، حتى أبعث إلى كل قبائلها، فأجمع لك منهم أكثر مما معك، ثم أصحبك إلى عدوّك. ففعل وانصرف معه حتى أقام بطيّء أياماً، ثم خرج إلى قتال طليحة وقومه من بني أسد وحلفائه من غَطَفَان.

كان عدي وقومه حليفاً مخلصاً وعظيماً، وقد دار حوار بين خالد ورجال من طيء يدل على ذلك. فقد قال له رجال من طيء: نحن نكفيك غَطَفَان، فإن أسداً من حلفائنا.

فقال خالد: والله ما غَطَفَان بأوْهَن الشوكتين، اصمدوا إلى أي القبيلتين أحببتم.

فقال عدي: لو ترك هذا الدين أسْرتي، الأدنى فالأدنى من قومي لجاهدتهم عليه، فأنا أمتنع من جهاد بني أسد لِحلفِهِم!! لا، لَعَمْرُ الله لا أفعل.

فقال خالد: إن جهاد الفريقين جميعاً جهاد، لا تخالف رأي

أصحابك، امضِ إلى أحد الفريقين، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشَطَ.

وامتثل الناس، ودارت معارك عنيفة، وكان عُيينة بن حصن الفزاري هو الذي يقود المعركة في جيش طُليحة، في سبعمائة من بني فزارة، على حين أن طُليحة يقيم متَلَفِّفاً في كيساء له بفناء بيت من شعر، يتنبأ لهم والنَّاس يقتتلون، فلما هزَّتْ عُيَيْنَة الحربُ، وضَرَّسَه القتال كرّ على طُليحة فقال: هل جاءك جبريل بَعْدُ؟.

قال: لا، فرجع حتى أنهكه القتال، وهزته الحرب، ثم كَرّ عليه فقال: أما جاءك جبريل بعد؟!.

قال طليحة: لا والله.

قال عيينة: حتى متى قد والله بلغ منّا! ثم رجع إلى وطيس الحرب فرأى خيل خالد تكاد تحيط به وبأصحابه، فرجع إلى طُليحة فَزِعاً يكرر عليه:

هل جاءك جبريل بعد؟.

قال: نعم.

قال: فماذا قال لك؟.

قال: إن لك رحىً كرحاه، وحديثاً لا تنساه.

فقال عيينة بن حصن الفزاري: أظن أنْ قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساهُ! انصرفوا يا بني فزارة، فهذا والله كذاب!.

فانصرفوا وانهزم النـاس وغَـشُوا طليحة يقولون: ماذا تأمرنـا؟ فوثب على فرسه، وحمل امرأته النوار، وقال: من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت، وينجو بأهله فليفعل، ثم هرب إلى الشام بعد أن أرفَضَ جمْعُه، وأقام في بني كلب هناك - ثم عاد إلى الإسلام حين بلغه أن القبائل التي بايَعَتْهُ قد عادت إلى الدِّين القَيِّم، وخرج بعد ذلك معتمراً في خلافة أبي بكر، فمر بجنبات المدينة، فذكر بعض المسلمين لأبي بكر مكانه، فقال:

ما أصنع به! خَلُّوا عنه، فقد هداه الله للإسلام.

فهرست